الفصل الحادي والعشرون بعد المئة

الخط العربي

للعلماء الذين اشتغلوا في موضوع نشوء الخط عند البشر ، والقلم الأول الذي تفرعت منه سائر الأقلام ، نظريات في تأريخ الكتابة وظهورها ، وفي المراحل التي مرّت عليها من أول عهد مرت فيه وهو عهد الكتابة الصورية Pictography الى وصولها الى مرحلة الحروف . وهذه النظريات مع أنها مرت بمناقشات وبحوث وتحددت حتى أصبحت معروفة عند علماء الخطوط ، لم تستقر حتى الآن . لأن ما وصل الينا من نماذج كتابية أثرية ، لا يكفي لابداء رأي مقبول أو رأي قاطع في أصل الخط وفي منشئه وفي الأمة التي أوجدته . ولا أعتقد أن في امكان أحد القطع في ذلك ، ما لم يعثر المنقبون في المستقبل على نماذج عادية غير معروفة ، تكون كافية لإبداء رأي علمي في هذا الموضوع .

واختراع الكتابة من الاختراعات الكبرى التي غيرت مجرى البشر،وهو اختراع لا تقل أهميته عن أعظم الاختراعات والاكتشافات والمغامرات التي قام بها الانسان منذ يومه الأول حتى هذا اليوم . ومنها هروب الانسان من أحضان أمه الأرض، وعقوقه بحقها ، والتبطر بها ، وذهابه الى القمر ثم الى ما وراء القمر من عوالم سابحة راقصة في هذا الذي نسميه السماء . ونحن لا نحفل اليوم بموضوع أهمية اختراع الكتابة ، بالنسبة الى تقدم العقل البشري ، ولا يعرف معظم الناس عنه أي شيء ، ولا يحفلون به ، لأنه صار من القديم البائد . وكل قديم بائد يكتب عليه النسيان . وسيأتي يوم ولا شك ينسى فيه الجاءون من بعدنا بمئات وبآلاف

من السنين ، يوم هروب الإنسان من الأرض ، ولا ينظرون إليـه إلا كما ينظر الانسان الأمي الجاهل الى مبدأ الكتابة أو الى اختراع النار أو اختراع الطباعة أو غير ذلك من المخترعات التي إذا مضى وقت طويل على اختراعهـا نسيتها ذاكرة البشر ، ونسيت كل أثر تركته في تطور حياة هذا الإنسان المغامر المغرم بالبحث عن المجهول .

ولعلي لا أخطأ إذا قلت إن الإنسان قد فكر في الكتابة منذ أيامه الأولى أي منذ شعر بنفسه ، وصار يُعبر عمـا في ذاته ، فكر بها لأنه كان في حاجة الى تسجيل أعماله ومعاملاته وكلامه ، ليتمكن من تذكرها عند الحاجة والى مراجعتها. كما فكر في تسجيل حوادثه وشعوره وتأثره بالمرثيات الجميلة أو المحزنة،وبالخواطر التي كانت تمر عليه ، وبكل إحساسه وعواطفه . وكان كلما تقدم عقله وتوسعت مداركه شعر بحاجتـه الى تدوين أعماله وأحاسيسه ، فعمد الى الطرق البدائية في التدوين ، ثم طوّرها تدريجياً حتى وصل الى مرتبة الكتابة الصورية ، أي أنـه استخدم الصور في مقام الألفاظ . بأن يرسم صورة ، فإذا رآها أحد عرفها وسماها باسمها.وعرفت هذه الطريقة بالكتابة الصورية . غير أن هذه الطريقة وإن عبرت بعض التعبير عن مشاعر الكاتب ، إلا أنها كانت عاجزة عن التعبير عن الأمـور الروحية وعن الألفاظ المعنوية ، وعن الأمور الحسابية وغير ذلك . لـذلك لم يقنع بها بل أخذ يشحذ ذهنه لإيجاد طريقة أخرى مختصرة وبسيطة ولها قابلية على رسم المعاني والاحساس،فأوجد من الكتابة الصورية ، اختزالاً نسميه : الكتابة المقطعية. أي انه اختزل الصور ، وجزأها الى مقاطع . وأخذ منها مقاطعها الأولى . فسماها بأسمائها الأصلية . فوصل بذلك الى مرحلة المقاطع . وتمكن بسليقتـه وبذكائه من تحليل الأسماء والألفاظ التي يراد تدوينها الى مقاطع ، وتدوين أي كلمة بمقاطعهـا التي تتألف منها . وقد سهلت هذه المرحلة عليه كتابة الكلمات التي تعبر عن الآراء ومن تسجيل جمل وصفحات فيها ألفـاظ مادية محسوسة وألفاظ ليست بمسميات لأشياء مادية وإنما هي تعبير عن معان وإحساس . مثل موت وحياة ورأي ومـا شاكل ذلك . إلا أنه وجد أن هذه الطريقة لا تزال طريقة صعبة عسيرة ، وأن على الإنسان أن يحفظ صور مئات من العلامات التي تعبر عن المقاطع لتدوين رسالة. لذلك فكر في اختزالها أيضاً وفي غربلتها وجزم المقاطع للوصول الى الجذور الأساسية للألفاظ وقد نجح في عمله هذا فتوصل إلى إيجاد الحروف . فبلغ بـذلك النهاية .

وهي المرحلة الحقيقية للكتابة . وبذلك استطاع أن يدوّن كل ما يدور بخلده من آراء بحروف ، يضعها بعضها الى بعض ليولد منها الألفاظ التي تدوّن بعضها الى بعض لتعبر عما يريد الكاتب تدوينه .

وما ذكرته يمثل مجمل رأي العلماء في تطور الكتابة من الرموز والعلامات البدائية الى بلوغها مرحلة الكمال والتمام . وقد أخذوا رأيهم هذا من الصور والنقوش التي عثر عليها في الكهوف وعلى الصخور وفي المقابر في مختلف أنحـاء العالم . ولكن رأيهم هذا يتشعب ويتضارب عندما يتعرض للأصل الذي أوجد الحروف، والمكان الذي صار له شرف ايجاد الكتابة ، وحل المشكلة المستعصية التي دوخت الانسان، مشكلة تدوين ما يدور بخلده بيسر وسهولة . فذهب بعض الباحثين الى ان الكتابة انما ظهرت في العراق ، وذهب بعض آخر الى انها ظهرت في لبنـان ، وذهب بعض الى انها من نبت أرض النيل ، وذهب آخرون الى انها من ثمرات جزيرة (كريت) . ولكل رأي ودليل وحجة تقوم على دراسة الكتابات والنصوص التي عثر عليها في تلك الأرضين .

والذين يرون ان العراق هو وطن الكتابة الأول ، يرون ان الخط انما ظهر بتأثير عبادة النجوم ، وذلك في أرض (كلديا) ، وكان الكهنة قد وضعوا رموزاً للنجوم ، ومن تلك الرموز أخذت الأبجدية الأولى ، وتفرعت الألفباء الساميـة الغربية التي صارت أماً لمجموعة من الأبجديات ، ومن قائلي هذه النظرية والمدافعين عنها المستشرق (هومل)[1] .

وهناك طائفة من العلماء رأت ان الأبجدية الأولى هي وليدة أرض النيل . وأن الذين أوجدوا الأبجدية انما أخذوها منها . وكان المصريون قد استعملوا في بادىء أمرهم الكتابة الصورية ، ثم اختزلوها وأولدوا منها (الكتابة الهيروغليفيـة) . وهي كتابة متطورة متقدمة بالنسبة الى الكتابة الصورية . وقد صارت هذه الكتابة أماً لأقدم الكتابات . إذ تعلمها أهـل (سيناء) وأهل بلاد الشام،ثم اختزلوها وجزموها ، حتى أوجدوا من هذا الجزم الحروف الهجائية[2] .

---

١ Grundriss, I, S. 97, Geschichte Babylonien und Assyrian, S. 50.

٢ Ency. Britanica, Vol. I p. 680, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, S. I, A.H. Gardiner, « The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet », in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916.

وعثر المنقبون في طور سيناء في (سرابيط الخادم) على كتابة قديمة يعود عهدها الى سنة (١٨٥٠) قبل الميلاد ، دفعت بعض العلماء مثل (مارتن اشبرنكلنك) على القول بأن هذه الكتابة هي وليدة الكتابة الهيروغليفية ، وانها الحلقة المفقودة التي توصل بين الهيروغليفية وبين مرحلة الحروف . وذهب الى ان العمال الذين كانوا يشتغلون في مناجم طور سيناء انما اهتدوا الى التدوين بالحروف من معرفتهم للهيروغليفية . إذ اختزلوا المقاطع ، وأخذوا بالجزء الأول من كل مقطع وسمّوا ذلك الجزء باسم من أسماء الصور بلغتهم ، فتكونت عندهم مجموعة من الحروف كونت الأبجدية الطورسينائية ، بلغ عددها اثنين وعشرين حرفاً ، أصبحت نموذجاً للأبجديات الأخرى التي اعتمدت عليها [١] .

وقد انتشرت هذه الأبجدية من (طور سيناء) الى الشرق فوصلت الى الشأم وجزيرة العرب ، وصارت أصل الأبجديات في هذه الأماكن غير انها لم تستعمل في العراق ، حيث كانت الكتابة المسمارية ، ولا في مصر ، حيث كانت الكتابة (الهيروغليفية) . وقد تغيرت أشكالها باستعمالها الطويل ، وتحرفت بمرور الزمن ، وتبدلت الأسماء التي وضعها كتّاب طور سيناء لحروفهم ، كما تبدلت من حيث الترتيب وبذلك تولدت منها أقلام جديدة [٢] .

ورأى بعض العلماء ان الخط الكنعاني الذي هو من الخطوط القديمة ، قد اشتق من الخط الهيروغليفي ، لوجود شبه بين الحروف الكنعانية وبعض الصور الهيروغليفية . ورأى بعض آخر انه مشتق من الكتابة المسمارية . ورأى آخرون انه اشتق من الأبجدية (الطورسينائية) ، إذ يصعب تصور اشتقاق الخط الكنعاني من الهيروغليفية رأساً لبعد ما بين الكتابتين، وإن كان هناك شبه بين بعض الحروف الكنعانية والصور الهيروغليفية . ومن الخط الكنعاني تولدت بعض الأقلام السامية المتأخرة [٣] .

وذهب باحثون الى أن الفينيقيين هم أول من اخترعوا الأبجدية ، ومن هذه الأبجدية الفينيقية تولدت الأبجديات الأخرى ، وذهب قسم منهم الى أن الفينيقيين، إنما أخذوا أبجديتهم هذه من الهيروغليفية ، بأن شذّبوها وجزموا مقاطعها، وأولدوا

---

١ Martin Sprengling, The Alphabet : its Rise and development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٢ The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٣ The Jewish Quarterly Review, XII, (1950), 83-109, 159-179.

منها الحروف[1] . ونظراً الى وجود هوة كبيرة بين الكتابة الفينيقية وبين الهيروغليفية ، رأى بعض الباحثين ، أن الفينيقيين ، إنما أخذوا خطهم من الخط الطورسينائي ، ثم طوروه وحسّنوه وأوجدوا منه خطهم الذي أولد جملة خطوط .

وطائفة أخرى من العلماء ، رأت أن وطن (الألفباء) الأول هو جزيرة قبرس أو جزيرة كريت ، حيث عثر فيهما على نماذج قديمة للكتابة اتخذوها حجة يستند اليها في هذا الرأي . وقد زعم أصحاب هذه النظرية أن أهل ساحل البحر الأبيض إنما تعلموا الكتابة من أهل (كريت) أو (قبرس) . وذلك باحتكاكهم بهم ، وبهجرة الفلسطينيين Philistines ، من جزيرة (كريت) الى سواحل فلسطين التي عرفت باسمهم (فلسطية) Philistia ، ثم أطلقت على المنطقة التي قيل لها فلسطين كلها . ومن الفلسطينيين أخذ الفينيقيون الأبجدية[2] .

وقد عثر الباحثون على عدد من الكتابات القديمة في جزيرة (كريت) ، تبين من دراسة بعض منها أنها مكتوبة على طريقة الكتابة الهيروغليفية ويرجع عهدها الى ما بين (٢٠٠٠) الى (١٦٠٠) قبل الميلاد . كما عثروا على كتابة صورية يعود عهدها الى حوالى السنة (١٧٠٠) قبل الميلاد . وعثروا على كتابات أخرى حملتهم على القول بأن (كريت) كانت الموطن الأول للكتابة ، ومنها انتقلت الكتابة الى مواضع أخرى من البحر الأبيض[3] . كما بينت ذلك في الفقرة السابقة .

وقد عثر المستشرق (كلود شيفر) M. Claude Schaeffer ، المعروف بتنقيبه عن النصوص (اليغاريتية) Ugarit في شهر (نوفمبر) من عام ١٩٤٩ م على آجرة صغيرة من الصلصال المفخور بالنار حجمها (٥) سنتيمترات في ١٥ ملمتراً في موضع (رأس الشمرة) الواقع على مسافة عشرة أميال من شمال اللاذقية ، ظهر أنها على صغرها وتفاهتها البادية عليها من أهم ما عثر عليه من نصوص . فهذه الآجرة الصغيرة التي لا تلفت اليها الأنظار هي لوح في

---

١ الدراسات الادبية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الثانية ، العدد الاول ، ١٩٦٠ م (ص ٤٤ وما بعدها) .
Ency. Brita., I, p. 680, A.H. Gardiner, The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet, in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916, M. Dunand, Byblia Grammata, Beyrouth, 1945, p. 71.

٢ Ency. Brit. I, p. 680, Hastings, p. 672, Ency. Bibli., p. 3434.

٣ The Art of Writing, Unseco, p. 8.

غاية من الأهمية كتبت عليه الأبجدية (اليغاريتية) المؤلفة من ثلاثين حرفاً ، وهي على الرغم من صغر حروفها مكتوبة كتابة واضحة بخط قوي جلي . وقد كان العلماء يبحثون عن هذه الأبجدية بكل شوق ، والظاهر ان أحد الطلاب كتبها على هذا اللوح ، ويرجع عهده الى القرن الرابع قبل الميلاد[1] .

وهذه الأبجدية (اليغاريتية) مكتوبة كتابة اسفينية ، ولذلك رأى بعض الذين بحثوا في (اليغاريتية) انها وليدة الكتابة المسمارية . ورأى بعض آخر انها متأثرة بالهيروغليفية من حيث تكوين الحروف الصامتة . وأما من ناحيـة الرسم ، فإنها متأثرة بالكتابة المسمارية . وتتألف من ثلاثين حرفاً ، فهي تتضمن جميع الحروف في الأبجديات السامية الشمالية الغربية المكونة من اثنين وعشرين حرفاً صامتاً . ونجد انها أوردت هذه الحروف على ترتيب الأبجدية الإرمية والعبرانية ، خلا انها وضعت خمسة أحرف أخرى لم ترد في العبرانية بين هـذه المجموعة ، فتكوّن منها سبعة وعشرون حرفاً تضاهي الأبجدية الكنعانية ، ثم أضاف اليهـا كتبة (اليغاريتية) أحرفاً أخرى ، فأصبح مجموف الحروف ثلاثين حرفاً تألفت منها الأبجديـة (اليغاريتية)[2] .

نرى مما تقدم ان آراء علماء الخط تكـاد تتفق على ان مخترعي الأبجديات هم أناس يجب أن يكونوا من أهل الشرق الأدنى أو من حوض البحر الأبيض ، من أهـل جزيرة (كريت) أو (قبرس) . وآراؤهم هذه هي بالنسبة الى الأقلام المشهورة التي لا تزال مستعملة وحية معروفة مثل الخطوط المستعملة في اوروبة ، وفي اميركا ، ومثل الخط العربي والعبراني والسرياني وبالنسبة الى أقـلام أخرى ماتت ، غير ان العلماء المتخصصين يعرفون عنهـا شيئـاً ويقرأون نصوصها مثـل الكتابات المسمارية وأمثالها . إلا ان هناك أقلاماً هي قديمة أيضاً،ولها أهمية كبيرة ،

---

١ راجع وصف هذه الاجرة الصغيرة والابجدية (اليغاريتية) في مجلة المجمع العلمـي العربي بدمشق : حـ٤ مجلد ٢٥ (١٩٥٠ م) ، (٦٢ وما بعدها) ،
The Glascow Herald, Saturday March 4, 1950, Manchester Guardian Weekly, March 23rd, 1950, p. 13, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12.

٢ The Glascow Herald, Saturday March, The 4th., 1950, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12, Le Muséon, LIX, (1946), 1-4, p. 95, C.H. Gordon, Ugaritic Grammer, Analecta Orientalia, 20, Roma, 1939, p. 69, Caude F. A. Schaeffer, The Cuniform Texts of Ras Schamra Ugari, London, 1939.

ونصوص وكتابات ، لذلك يجب البحث عنها ، لمعرفة تأريخها ودرجة صلتها بالأقلام التي نتحدث عنها . للوقوف على البواعث التي دفعت أصحابها على ايجادها والمراحل التي مرّت بها . فليس من الصواب إهمال تلك الأقلام وغض النظر عنها باعتبار انها أقلام بعيدة عن أقلامنا ، وهي تمثل ثقافة بعيدة عن ثقافتنا .

كذلك يجب البحث عن الرسوم والرموز والإشارات التي سجلها الإنسان البدائي للتعبير عن نفسه ولتخليد ما كان يدور بخلده . ومقارنة ذلك مع أمثاله في كل أنحاء العالم . فإذا فعلنا ذلك وجمعنا كل الأقلام القديمة مثل أقلام الصين والهند وبقية أقلام أقطار آسية وأقلام إفريقية واميركا ، ودرسناها دراسة علمية . صار في إمكاننا تكوين رأي عام علمي تقريبي عن تأريخ ظهور الخط عند البشر : متى كان ذلك وأقدم من بدأ به ، مع بذل الجهد للبحث عن نماذج جديدة من الخطوط في كل مكان من العالم لنزيد بها على علمنا المتجمع من الكتابات التي وصلت الينا ولا نضيف عليه علماً جديداً وليكون حكماً قريباً من المنطق والعلم .

والرأي عندي أنه لأجل الإحاطة بتأريخ تطور الخط ، لا بد من الاستمرار في البحث عن كتابات أخرى جديدة ومن دراسة مظاهر أشكال الحروف وكيفية ترتيبها وكيفية النطق بها ، أي الإحاطة بأسماء الحروف . فإن هذه الأمور تساعدنا كثيراً على فهم تطور الخط عند البشر وعن صلته بعضه ببعض ومن التوصل الى نتائج علمية قويمة ، لا تقاس بالنتائج التي تبنى على مجرد الظن والتخمين والتصور.

والذي نلاحظه اليوم أن حروف الخطوط السامية المستعملة عند الغربيين ، تكاد تتفق في أسمائها وفي ترتيبها ، ويشير هذا التشابه الى وحدة الأصل ، والى أن الأبجديات المذكورة قد تفرعت كلها من شجرة واحدة ، ونبعت من منبع واحد. فكلها تبتدىء بحرف واحد ، هو (الألف) وكلها تجعل الباء حرفاً ثانياً ، ثم ان في وحدة تسمياتها مع اختلاف اللغات التي تدوّن بها دليلاً كافياً على إثبات أن هذه الأبجديات هي من أصل واحد . وعلى أن الأسماء الحروف علاقة وثيقة بالصور وبالكتابة الصورية للغة الأم التي اخترعت تلك الحروف وأوجدتها من مرحلة المقاطع . وإذا ثبتنا أسماء الحروف،وعرفنا من أين أخذت ، وإذا استطعنا العثور على أقدم نص للأبجدية،يكون في إمكاننا ابداء رأي علمي في منشأ الحروف وفي المكان الذي كان له شرف إيجادها ، أو الأماكن التي ساهمت بصور مستقلة

في إيجاد الحروف . وهذا ما أراه . لأني أعتقد أن الانسان فكّر في أول ما فكر به في إيجاد وسيلة يسجل بها أعماله وأفكاره ، وأن تفكيره هذا لم ينحصر في بقعة واحدة ، بل وجد في كل مكان . حتى في البيئات البدائية ،إذ نجد الشعوب البدائية تتخذ وسائل للتعبير عن آرائها وعن تدوين أفكارها بطرق تتفق مع مستواها العقلي ودرجتها في الثقافة .

والحرف الأول ،وهو الألف ، يعني (ثوراً) ، ولذلك مثـل في الهيروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل رأس ثور،وأما الحرف الثاني، وهو الباء أو Beth ، فإنه يعني (بيتاً)،وقد صور في الهيروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل يصور مقدمة بيت . وأما الحرف الثالث ، وهو الجيم ، فإنه (كمل) (كيمل) ، أي الجمل،وصورته لا ترمز الى الجمل رمزاً تاماً . وأما حرف الدال،فيقال (دالت)،ومعناه باب . وأما حرف الهاء ، فإنه من He (هى) بمعنى شباك . وأما الواو ، فهو يشير الى وتد . وأما الزاي،فإنه من زين بمعنى سلاح . وأما الحاء ، فإنه من (حيث) بمعنى حائط . وأما الياء ، فإنه من (يود) بمعنى يد أو يد مفتوحة . وأخذ حرف الكاف من (كاف) (كف) بمعنى كف اليد ، أو يد مقبوضة . وأما حرف اللام ، فإنه من (لمد) (لامد) ، ومعناه عصا لضرب الثور . وأما الميم ، فإنه من (ميم) بمعنى ماء . وأما النون ، فإنه من نون بمعنى سمكة . وأما حرف السين فهو سامخ ، بمعنى آلة يعتمد عليها كالعصا . وقد أخذ حرف العين من عين ، عين الانسان . وأخذ الفاء من فم (بم) Pe بمعنى فم ، وأخـذ حرف الصاد من (صادى) ، بمعنى صياد . وحرف القاف من قوف Kof بمعنى الرأس الى الخلف ، وحرف الراء ، من ريش بمعنى رأس ، وحرف الشين من (شين) (شن) بمعنى سن . وأما التاء ، فمن كلمة (تاو) (تو) بمعنى علامة أو صليب ، وهكذا[1] .

ولمسألة ترتيب الحروف أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية أسماء الحروف . ويظهر ان ترتيب (أبجد هوز حطي ... الخ) ، وهو ترتيب سار عليه العرب أيضاً ، هو ترتيب قديم . وقد عرف عند السريان وعند النبط والعبرانيين،وعند (بني إرم) ويظن انهم أخذوه من الفينيقيين . وقد سار عليه الكنعانيون أيضاً ، غير انهـم

---

١ The Universal Jewish Ency. I, p. 202.

زادوا عليه الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . وقد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي يمثل حرف التاء فيها آخر حروف الأبجدية الحروف التي لم ترد في ترتيب (أبجد هوز) ، وهي موجودة في العربية ويقال لها (الروادف)[1]. أما الترتيب السائر اليوم في كتابة الحروف العربية مبتدئين بالألف ومنتهين بالياء، فهو ترتيب اسلامي ، وقد وضع على ما يخيل إلي لتيسير حفظ أشكال الحروف للطلاب ، لأنه راعى الجمع بين الحروف المتشابهة ، ولم يتجنب مع ذلك الترتيب الأصل المراعى في نظام (أبجد هوز) تجنباً تاماً . وضعه (نصر بن عاصم) في ايام الحجاج .

ومن الفينيقيين الذين كانوا يقطعون البحار والبراري للاتجار مع مختلف الشعوب، انتشرت الكتابة بالحروف الى حوض البحر الأبيض . فقد كان تجّارهم يسجلون ما يبيعون ويشترون ليضبطوا بذلك أعمالهم ، فظن من كان يتعامل معهم من اليونان وغيرهم انهم كانوا يقومون بأعمال سحرية . ولما عرفوا انهم انما يكتبون ذلك لضبط أعمالهم وتجارتهم تعلموا منهم سر الكتابة . ثم سرعان ما أخذوا يكتبون . وبذلك انتشرت الكتابة في اوروبة . ويظهر ان انتقال الخط الى اوروبة كان في القرن العاشر قبل الميلاد[2] . وقد حافظ اليونان القدامى على أشكال الحروف الفينيقية وعلى طريقتهم في التدوين من اليمين الى اليسار . وحافظوا على أسماء الحروف كذلك . ثم وجد اليونان ان الحروف الفينيقية هي حروف صامتة ولا توجد فيها حروف تعبر عن الحركات. فأكملوها بإضافة الحركات اليها. ثم طوروها بالتدريج. وكان في جملة التطورات الابتداء بالكتابة من اليسار نحو اليمين . وعن اليونان أخذ الرومان وغيرهم من الشعوب الأوروبية الكتابة ، وأخذ كل قوم منهم يوجد منها طرقاً جديدة في الخط حتى صارت على نحو ما هي عليه في هذا اليوم .

الخط العربي :

والعرب من الشعوب التي عرفت الكتابة ومارستها قبل الإسلام بزمان طويل كذلك . بل عرفوا الكتابة قبل الميلاد ببضع مئات من السنين . وقد عثر في مواضع

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ The Art of Writing, Unesco, 36.

من جزيرة العرب على كتابات دونت باليونانية وبلغات أخرى . وتبين من دراسة النصوص الجاهلية ، ان العرب كانوا يدونون قبل الاسلام بقلم ظهـــر في اليمن بصورة خاصة ، هو القلم الذي أطلق عليه أهل الأخبار (القلم المسند) أو (قلم حمير) . وهو قلم يباين القلم الذي نكتب به الآن . ثم تبين انهم صاروا يكتبون في الميلاد بقلم آخر ، أسهل وألين في الكتابة من القلم المسند ، أخذوه من القلم النبطي المتأخر وذلك قبيل الاسلام على ما يظهر . كما تبين ان النبط وعرب العراق وعرب بلاد الشأم كانوا يكتبون أمورهم بالإرمية وبالنبطية ، وذلك لشيوع هذين القلمين بين الناس ، حتى بين من لم يكـــن من (بني إرم) ولا من النبط ، كالعبرانيين الذين كتبوا بقلم إرمي الى جانب القلم العبراني ، ولاختـــلاط العرب الشماليين ببني إرم واحتكاكهم بهم ، مما جعلهم يتأثرون بهم ثقافياً ، فبان هذا الأثر في الكتابات القليلة التي وصلت الينا مدونة بنبطية متأثرة بالعربية .

ويظهر من عثور الباحثين على كتابات مدونة بالمسند في مواضع متعـــددة من جزيرة العرب ، ومنها سواحل الخليج العربي ، بعض منها قديم وبعض منهـــا قريب من الاسلام ، ان قلم المسند ، كان هو القلم العربي الأصيل والأول عند العرب . وقد كتب به كل أهل جزيرة العرب ، غير ان التبشير بالنصرانية الذي دخل جزيرة العرب ، وانتشر في مختلف الأماكن ، أدخـــل معه القلم الإرمي المتأخر ، قلم الكنائس الشرقية ، وأخذ ينشره بين الناس لأنه قلمه المقدس،الذي به كان يكتب رجال الدين . ولما كان هذا القلم أسهل في الكتابة من المسند ، وجد له أشياعاً وأتباعاً بين من دخل في النصرانية وبين الوثنيين أيضاً ، لسهولته في الكتابة،غير انه لم يتمكن مع ذلك من القضاء على المسند إذ بقي الناس يكتبون به . فلما جاء الاسلام ، وكتب كتبة الوحي بقلم أهل مكة لنزول الوحي بينهم . صار قلم مكة هو القلم الرسمي للمسلمين ، وحكم على المسند بالموت عندئذ، فمات ونسيه العرب ، الى أن بعثه المستشرقون ، فأعادوه الى الوجود مرة أخرى،ليترجم لنا الكتابات العادية التي دونت به .

وهناك أقلام عثر عليها المستشرقون في أعالي الحجاز ، تشبه القلم المسند شبهاً كبيراً ، لذلك رأى الباحثون انها من صلب ذلك القلم ومن فروعه للشبه المذكور، ولأنها متأخرة بالنسبة له ، فلا يمكن أن تكون هي الأم . وقد سمي قلم منهـــا بالقلم الثمودي نسبة الى قوم ثمود ، وسمي قلم آخر بالقلم اللحياني ، نسبة الى

(لحيان) . وعرف القلم الثالث بـ (الكتابة الصفوية) ، نسبة الى أرض (الصفاة) الأرض التي عثر بها على أول كتابة مكتوبة بهذا القلم .

وقد عرف علماء العربية القلم المسند ، ومنهم حصل هذا القلم على اسمه . ولكنهم لم يعرفوا من أمره شيئاً يذكر . وكل ما عرفوه عنه أنه خط أهل اليمن القديم ، وأنه خط حمير . وأن قوماً من أهل اليمن بقوا أمداً يكتبون به في الإسلام ويقرأون نصوصه . كما عرفوا القلم الذي دوّن به القرآن الكريم . ودعوه (القلم العربي) او (الخط العربي) حيناً و (الكتاب العربي) أو (الكتابة العربيـة) حيناً آخر تمييزاً له عن المسند[1] . ولم يشيروا الى أسماء خطوط جاهلية أخرى .

وقد تكلم (الهمداني) ومشايخه من قبله عن المسند ، كما أشار اليه (ابن النديم) ، وذكر أن نماذج منه كانت في خزانة (المأمون) . غير أن علمهم به لم يكن متقناً على ما يظهر من نقولهم عنه . كما تحدثت عن ذلك في أثناء كلامي عن (الهمداني) . ولم يكن لهم إدراك عن كيفية تطوره . وقد دعوه بالخط الحميري . وعرّفـوه بأنه خط مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيما بينهم . قال (أبو حاتم) هو في أيديهم الى اليوم باليمن[2] . هذا ولم أجد في المؤلفات الإسلامية المعروفة في هذا اليوم ما يفيد بأن أحداً من العرب الإسلاميين كان له عـلم متقن بالعربيات الجنوبية ، أو كان له علم بتأريخ العربية الجنوبية القديم ، وفي الذي ذكروه عن الخط المسند وعن لغات العرب الجنوبيين وتأريخهم تأييد لما أقوله .

والعرب تسمي (الكتاب العربي) أي خطنا : (الجزم) ، وذكروا أنه إنما سمي جزماً لأنه جزم من المسند ، أي قطع منه ، وهو خط حمير في أيام ملكهم[3] ولا أستبعد احتمال كون كلمة (الجزم) تسمية ذلك القلم في الجاهلية ، وأما تفسير

---

١ الفهرست (ص ٦ فما بعدها) ، صبح الاعشى (٣/١١) ، الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس (ص ٧ وما بعدها) ، تأريخ الخط العربي وآدابه ، تأليف محمد بـن طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط ، مكة ، ١٩٣٩ م ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، الجهشياري ، الوزراء (١٢،١ وما بعدها) ، السجستاني ، كتـاب المصاحف (٤ وما بعدها الصولي ، أدب الكتاب (٢٨ ـ ٣١) ، القاهرة ١٣٤١ هـ) ، الابحاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الاول (ص ١١ وما بعدها) ، العقـد الفـريد (٤/٢٤٠ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/٣٨٢) ، (سند) .

٣ اللسان (١٢/٩٧ وما بعدها) ، (جزم) ، تاج العروس (٨/٢٢٨) ، (جزم) .

أهل الأخبـــار لسبب التسمية ، فهو من نوع التفاسير المعروفة المألوفة عن أهل الأخبار ، يضعونها حينما يجابههم شخص يريد معرفة سبب تسمية شيء بالاسم الذي عرف به . ودليل ذلك ما ذكره (البطليوسي) من أن أهل الأنبار كانوا يكتبون المشق ، وأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (خط الجزم) وهو خطهم ، وهو الذي صار خط المصاحف[1] . و (المشق) في تفسير علماء العربية مـدّ حروف الكتابة[2] ومعنى هذا أن خط أهل الأنبار ، كان متصل الحروف ممدودها ، بينما غلب على القلم الحيري ، الشكل التربيعي الجاف ذو الزوايا للحروف . وهـــو شكل تكون الكتابة به أبطأ من الكتابة بالقلم المشق . ونظيره هو القلم الكـوفي في الإسلام ، الذي اختص بأنواع معينة من أغراض الكتابة،ومنها الكتابة على الأحجار والخشب. ونظراً لبطء الكتابة به على الغالب لم يستعمل بكثرة في الكتابة .

ولعل سبب اختلاف قلم الأنبار عن قلم أهل الحيرة ، هو في المنبع الذي استقى كل من أهل المدينتين قلمه منه . فقد استعمل نصارى العراق في كتبهم الطقوسية القلم (السطرنجيلي) ، المشتق من القلم التدمري . وكتبوا بـــه الأناجيل والكتب المقدسة وأحجار المباني ، مثل الأحجار التي توضع فوق أبواب المعابد كالكنائس أو البيوت أو القبور وما شاكل ذلك . وهو خط ثقيل يحتاج الى بذل وقت في نقشه والى جهـــد في حفره على الخشب أو الحجر ، بل وفي الكتابة به أيضاً . واستعملوا قلماً آخر أسرع منه وأسهل وأطوع في الكتابة به من (السطرنجيلي) ، كتبت به الأعمال التجارية والمخابرات والرسائل والكتب ، كتبوا بـه بقلم القصب وبالحبر . فكان منه خط النسخ[3] .

هـــذا وقد كتب النبط بقلمين كذلك:قلم قديم ، ثقيل في الكتابة تكثر فيه الخطوط المستقيمة والزوايا والتربيعات فهو على شاكلة (السطرنجيلي) ، والخـــط الكوفي . كتبوا به على الأخشاب والحجارة والمعـــادن والصخور ، حيث حفروا الكتابة حفراً ، كما استعملوه في ضرب نقودهم . وهو ثقيل في الكتابة لذلك لم يستعمل في الأغراض اليومية كتدوين المعـــاملات التجارية والمراسلات وما شاكل

---

١ الاقتضاب (٨٩) .

٢ تاج العروس (٧/٧٠) ، (مشق) .

٣ الابحاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الاول (ص ١٥) .

ذلك من أمور تستدعي السرعة ، بل استخدم الكتاب قلماً آخر لهذه الأغراض ، هو القلم المدوّر الـــذي يشبه النسخ ، والذي نستطيع أن نسميه (المشق) ، قلم أهل الأنبار . وهو قلم متأخر ظهر عندهم بعد القلم الأول[1] .

ونجد أكثر شعوب الشرق الأدنى على هذه العادة في اتخاذ قلم خاص يكتبون به الكتب المقدسة والأحجار التذكارية،التي توضع فوق أبواب المعابد وفي داخلها أو على القبور للذكرى والتـــأريخ . لذلك يجتهد فيه أن يكون مزوقاً ذا زوايا وتربيعات وزخرف ونقوش ، باعتبار أنه إنما يدوّن للتخليد ولتدوين شيء مقدس ثمين . ومن هـــذه النظرة تولدت طريقة رسم الحروف الأولى لكلمات الجمل أو عنـــوان الفصول بحروف بارزة مغايرة للحروف الأخرى التي تدوّن بها الكلمات التاليـــة . واتخذوا أقلاماً أخرى راعوا فيها السهولة والليونة في الكتابة . لتدوين الكتب الأخرى التي لا صلة لها بالدين ولتدوين الأعمال اليومية . جعلوا حروفها مدوّرة أو مقوسة ، ليمكن الكتابة بها بسهولة بدون حاجة الى بذل عناية في رسم خطوطها المستقيمة والمربعة والزوايا التي تكوّن الحروف .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الخط ، فقال : « وليس في الأرض أمة بها طرق أو لها مسكة ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، إلا ولهم خط . فأما أصحاب الملك والملكة والسلطان والجباية ، والديانة والعبادة ، فهناك الكتاب المتقن ، والحساب المحكم ، ولا يخرج الخط من الجزم والمسند المنمنم كذا كيف كان ، قال ذلك الهيثم بن عدي وابن الكلبي »[2] . فالخط العربي الجاهلي ، قلمان : جزم ومسند، ولا ثالث لهما . المسند خط العربية الجنوبية وخط من كتب بهذا القلم من بقيـــة أنحاء جزيرة العرب ، والجزم ، خط أهل مكة والمدينة وعرب العراق وغيرهم من العرب الشماليين .

ولما كان عرب العراق قد خالطوا بني إرم وأخذوا من ثقافتهم ، ومنهم من اعتنق دينهم ، فدخل في النصرانية . فلا أستبعد استعمالها قلمـــين ، أو أكثر في الكتابة . قلم رُوعي فيه ما رآه نصارى العراق في (السطرنجيلي) ، والمسمى أيضاً

---

١ الابحاث ، ١٩٥٢ ، (حـ ١ ص ١٤ وما بعدها) .

٢ الحيوان (١/٧١) ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٥ م .

بالخط الرهاوي ، وقلم آخر استعملوه للكتابات السريعة . ولا أستبعد احتمال كتابة أهل الأنبار أو أهل الحيرة أو غيرهم من عرب العراق بالقلمين معاً . القلم الذي دعاه البطليوسي بالمشق ، وهو على حد قوله قلم أهل الأنبار ، والقلم الحيري ، وهو الجزم على رأيه أيضاً . ويذكر ان القلم السطرنجيلي قد استنبط في مطلع القرن الثالث للميلاد . وقد استنبطه (بولس بن عرقا) أو (عتقا الرهاوي) . وشاع استعماله بين الناس[1] .

هذا وللعلماء المسلمين مؤلفات في تأريخ الخط العربي وتطوره ، ولهم نظريات وآراء في منشأ الخط ، منها آراء تنسب الى (ابن الكلبي) ، وهو في مقدمة علماء الأخبار في هذا الباب . واليه يرجع أكثر من جاء بعده في رواية أخباره عن منشأ الخط ، وعن كيفية تطوره حتى بلغ مبلغه هذا في الاسلام . ومنهـا آراء تنسب الى غيره كابن عباس[2] .

ونستطيع تلخيص وجهات نظرهم في منشأ الخط العربي في الملخصات الآتية :

١) كان منشأ الخط في اليمن ، ثم انتقل منه الى العراق حيث تعلمه أهل الحيرة ، ومنهم تعلمه أهل الأنبار ،ومنهم تعلمه جماعة نقلوه الى الحجاز . فالأصل، على رأي هؤلاء ، هو القلم المسند وكان كما يقولون بالغاً مبلغ الاتقان والجودة في دولة التبابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف[3] .

٢) أول من كتب الخط العربي حمير بن سبأ ، وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند ، سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه الى (هود)[4] .

٣) أول ما ظهرت الكتابة العربية بمكـة من قبل (حرب بن أمية) وقد

---

١ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، (١٩٥٩ م) ، (ص ٤٢١) .

٢ راجع ادب الكتاب للصولي (٢٨ وما بعدها) ، والفهرست لابن النديم (وما بعدها) وحكمة الاشراق الى اختراق الافاق ، للسيد مرتضى الزبيدي ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة (ص ٥٠ وما بعدها) ، البلاذري فتوح البلدان (٤٧٦ ومـا بعدها) والجهشياري ، الوزراء (٢٥١ وما بعـدها) ، صبح الاعشـى (٩/٣ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٠٣/٣) المزهر (٣٤٩/٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .

٣ المزهر (٣٤٩/٢) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .

٤ صبح الاعشى (٩/٣) .

أخذها من طارىء طرأ على مكة من اليمن . وقد أخذ ذلك الطارىء علمه بالكتابة من كاتب الوحي لهود[1] .

٤) أول من كتب بالعربية اسماعيل[2] . كتب على لفظه ومنطقه موصولاً ، حتى فرق بينها ولده هميسع وقيذر[3] .

٥) أول من وضع الكتاب العربي نفيس ، ونضر ، وتياء ، ودومة . هؤلاء ولد اسماعيل ، وضعوه موصولاً ، وفرقه قادور بن هميسع بن قادور[4] .

٦) إن نفيس ، ونضر ، وتيما ، ودومة ؛ بني إسماعيل ، وضعوا كتاباً واحداً وجعلوه سطراً واحداً غير متفرق ، موصول الحروف كلها ، ثم فرقه نبت ، وهميسع ، وقيذار ، وفرقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر[5] .

٧) كان قلم (الجزم) في نظر بعض العلماء أساس القلم العربي وقد سمي بالجزم ، لأن مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، وهم من طيء من بولان ، سكنوا الأنبار واجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة . فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام. وقد اقتطع مرامر الخط من المسند فسمي الجزم ، لأنه جزم أي اقتطع ، ولذلك قيل له الجزم قبل وجود الكوفة ؛ فتعلمه منهم أهل الأنبار ، وتعلمه منهم أهل الحيرة وسائر عرب العراق ، وتعلمه من أهل الحيرة بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر الى

---

١ صبح الاعشى (٣/١٠) .

٢ صبح الاعشى (٣/١٠) ، المزهر (٢/٣٤٢) ، (وعنه عليه الصلاة والسلام ، أنه أول من كتب بالعربية اسماعيل) ، الروض الانف (١/١٠) ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب (أو ما بعدها) .

٣ المزهر (٢/٣٤٢) ، (كان ابن عباس يقول : أول من وضع الكتاب العربي اسماعيل ـ عليه السلام ـ وضعه على لفظه ومنطقه) ، الصاحبي (٣٤) .

٤ الفهرست (ص ١٣) ، (الكلام على القلم العربي) .

٥ حكمة الاشراق ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٣/٩) .

مكة فتعلم منه جماعة من أهلها ، فلهذا أكثر الكتّاب من قريش[1] .

٨) أول من وضع الخط العربي (أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت) ، وهم قوم من الجيلة الأخيرة ، وقيل : إنهم بنو المحصن بن جندل ابن يصعب بن مدين ، وكانوا نزولاً مع عدنان بن أد ، فكان (أبجد) ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل ببلاد مضر ، فوضعوا الكتاب على أسمائهم ، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم ، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين فسموها الروادف[2] .

٩) أول من وضع الخط العربي وألف حروفه ستة أشخاص من طسم ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت أسماؤهم : أبجد هُوز حطي كلمن سعفص قرشت ، فوضعوا الكتابة والخط على أسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في أسمائهم ألحقوها بها ، وسموها الروادف ، وهي ثخذ ضظغ[3] .

١٠) أول من خط هو : مرامر بن مرة من أهل الأنبار ، وقيل إنه من بني مرة . ومن الأنبار انتشرت الكتابة في الناس . ذكروا أن قريشاً سُئِلوا : من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا : من الأنبار[4] .

(١١) تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار وخرج الى مكة وتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) . وتعلم منه حرب ، ومنه ابنه سفيان ، ومنه ابن أخيه معاوية بن أبي سفيان ، ثم انتشر في قريش ، وهو الخط الكوفي الذي استنبطت منه الأقلام[5] .

---

١ الفهرست (ص ٦) منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم (ص ٩٨) ، المزهر (٣٤٦/٢) ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٥) ، صبح الاعشى (٤٢١/١) الجهشيارى ، الوزراء (١) ، تاج العروس (٩٠/٣) ، (جدد) .

٢ المزهر (٣٤٨/٢) ، الفهرست (ص ١٢) ، (الكلام على القلم العربي) ، العقد الفريد (٢٤٢/٤) ، نزهة الجليس (٦٣/٢) .

٣ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٩/٣) ، نزهة الجليس (٦٣/٢ وما بعدها) ، الفهرست (١٢) ، الكلام على القلم العربي .

٤ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٥) ، ابن خلكان ، (٣٤٦/١) ، عيون الاخبار (٤٣/١) (الكتب والكتابة) .

٥ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٤ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١٠/٣) ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب (٢ وما بعدها) .

١٢) كان الكتاب العربي قليلاً في الأوس والخزرج ، وكان يهودي من يهود ماسكة قد علّمها ، فكان يعلمها الصبيان ، فجاء الاسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، يكتب الكتابين جميعاً العربية والعبرانية ، ورافع بن مالك ، وأسيد ابن حضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عبس بن كثيم ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد[١] .

١٣) أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان ، وبولان قبيلة من طيء ، نزلوا مدينة الأنبار ، وهم مرامر بن مُرّة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية . فأما مرامر ، فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام ، ثم نقل هذا العلم الى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه[٢] .

١٤) أول من كتب الكتاب العربي ، رجل من بني النضر بن كنانة ، فكتبته العرب حينئذ[٣] .

١٥) رأى نفر من العلماء ان أهل مكة انما تعلموا الكتابة من إياد أهل العراق وكانوا يكتبون ، ورووا في ذلك شعراً زعموا ان (أمية بن أبي الصلت) قائله ، منه :

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم[٤]

١٦) أول من وضع حروف ا ب ت ث نفر من أهل الأنبار من إياد القديمة ، وعنهم اخذت العرب[٥] .

---

١ صبح الاعشى (٣/١١) .
٢ صبح الاعشى (٣/٨) ، العقد الفريد (٤/٢٤٢) .
٣ صبح الاعشى (٣/٩) ، (رجل من بني مخلد بن النضر بن كنانة) ، الفهرست (١٣) .
٤ بلوغ الارب (٣/٣٦٩) ، الروض الانف (١/٤٣) .
٥ الفهرست (ص ١٣) .

١٧) الذي حمل الكتابة الى قريش بمكة ، أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة، وقيل حرب بن أمية[١] .

١٨) من حمير تعلمت مضر الكتابة العربية[٢] .

١٩) أصل الخط العربي من الأنبار ، وانما سكن الأنبار والحيرة بقايا العرب العاربة وكثير من المستعربة فنقلوا ذلك[٣] .

٢٠) وضع الكتاب العربي عبد ضخم وبيض ولد أميم بالحجاز ، ولهم يقول حاجز الأزدي :

عبد بن ضخم إذا نسبتهم وبيض أهل العلو في النسب
ابتدعوا منطقاً لخطّهم فبين الخط لهجة العرب[٤]

٢١) أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها ، آدم – عليه السلام – قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه ، فأصاب إسماعيل – عليه السلام – الكتاب العربي[٥] .

٢٢) أول من كتب بالعربية مرامر بن مرة ، رجل من أهل الأنبار . ومن الأنبار انتشرت في الناس .

٢٣) تعلمت قريش الكتابة من الحيرة، وتعلم أهل الحيرة الكتابة من الأنبار[٦] .

وذكر بعض علماء العربية أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً[٧] .

وهذه هي آراء علماء العربيـة في أصل الخط عند العرب ، وفي كيفية منشئه وظهوره .

---

١ الفهرست (ص ١٣) .
٢ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ الاكليل (١/٧٨ فما بعدها) .
٤ الاكليل (٦/٧٨) .
٥ الصاحبي (٣٤) ، ، المزهر (٢/٣٤١) .
٦ ابن رستة ، الاعلاق (١٩٢) .
٧ الصاحبي (٣٥) .

وقد ذكر (ابن النديم) مختلف الروايات التي كانت شائعة في أيامه عن القلم العربي . وذكر منابعها أحياناً وأهمل ذكرها أحياناً أخرى . وفي جملة من أشار اليهم (ابن عباس) ، فنسب اليه قوله إن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان على نحو ما ذكرت قبل قليل[1] . و (محمد بن إسحق) و (ابن الكلبي) ، و (ابن الكوفي) ، و (كعب الأحبار) و (مكحول) و (عمر بن شبة) في كتاب مكـــة ، و (ابن أبـي سعد)[2] . وذكر أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم . فيه حق عبد المطلب على رجل من حمير ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة . وكان خطّه شبه خط النساء . وذكر أن من كتاب العرب أسيد بن أبي العيص . وأن الناس عثروا على حجر كان على قبره كتب عليه اسمه[3] .

ولدينا رأي آخر يقول : « كانت الكتّاب في العرب من أهـــل الطائف ، تعلموها من رجل من أهل الحيرة ، وأخذها أهل الحيرة عن أهل الأنبار »[4] . وهو رأي نبع من المنابع المتقدمة .

وقد جزم قوم من العلماء ان أول من كتب بالعربية (مُرامـر بن مرّ) ، (مُرامر بن مُرّة) ، وذهب قوم ان أول من كتب بخطنا (عامر بن جدرة) ، وتوقف قوم هل هو خلاف أو يمكن التوفيق. وذهب آخرون إلى ان أول من كتب بالخط العربي عامر بن جدرة ومرامر بن مرة الطائيان ، ثم (سعد بن سبل)[5] . وقال (شرقي بن القطامي) ان أول من وضع خطنا هذا رجـال من طيء منهم مرامر بن مرة . قال الشاعر :

تعلمت باجاد وآل مرامر وسودت أثوابـي ولست بكاتب

وانما قال وآل مرامر ، لأنه كان قد سمى كل واحد من أولاده بكلمة من أبجد ، وهي ثمانية . وأول من كتب بالعربية مرامر بن مرة من أهل الأنبار ،

---

١ الفهرست (ص ١٢) .
٢ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٣ وما بعدها) .
٤ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .
٥ تاج العروس (٣/٩٠) ، (جدر) ، حكمة الاشراف (٦٥) ، ابن خلكان ، وفيات (١/٣٤٦) .

ويقال من أهل الحيرة . ويقال انه سئل المهاجرون من أين تعلمتم الخط؟ فقالوا: من الحيرة . وسئل أهل الحيرة من أين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الأنبار[1] .

والذين يذكرون ان (بشر بن عبد الملك) أخو (أكيدر بن عبد الملك) الكندي صاحب (دومة الجندل) ، الذي تعلم الكتابة من أهل الأنبار ، وخرج الى مكة ، فتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) أخت (أبي سفيان) ، وعلّم جماعة من أهل مكة الكتابة ، فلذلك كثر من يكتب بمكة من قريش ، يروون شعراً لرجل من أهل دومة الجندل ، زعموا انه قاله إظهاراً لمنة قومه على قريش ، هو :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكمو فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو من المال ما قد كان شتى مبعثرا
واتقنتمو ما كان بالمال مهملاً وطامنتمو ما كان منه منفرا
فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة وضاهيتمو كتّاب كسرى وقيصرا
وأغنيتمو عن مسند الحيّ حمير وما زبرت في الصحف أقيال حميرا[2]

فبشر بن عبد الملك ، هو الذي نقل (الجزم) الى (مكة) . والجزم هو الخط الذي دوّن به القرآن : أي القلم الذي نكتب به اليوم . فأغنى به أهل مكة عن الكتابة بقلم المسند قلم حمير الثقيل ، وصاروا يكتبون بالقلم وبالحبر ، على طريقة الفرس والروم يدوّنون به أمورهم . ويظهر من ذلك أن القلم المسند ، كان ثقيلاً في الكتابة ، ولهذا وجد أهل مكة صعوبة في تدوين أمورهم به ، فعدلوا عنه الى القلم الجزم .

ولو صح هذا الشعر ، فإن البيت الأخير منه يدل على أن أقيال حمير وغيرهم كانوا يكتبون بخطهم : المسند على الصحف ، وأنه قد كانت عندهم كتابات دوّنوها به بالحبر والقلم على الصحف والأدم ومواد الكتابة الأخرى ، ولم يكونوا يكتفون بالكتابة به على الأحجار فقط ، لأننا نجد أن كتاباتهم الواصلة الينا إنما

---

١ تاج العروس (٣/٥٤٠) ، (مرر) ، المزهر (٢/٣٤٧) .
٢ المزهر (٢/٣٤٧) .

قد كتبت بهذه الطريقة حسب . وسبب عدم وصول هذه الصحف الينـا ، أنها من مادة سريعـة العطب ، لذلك لم تتمكن من المحافظة على حياتها فذهبت مع أهلها ، وقد يعثر على شيء منها مدفون تحت الأرض بصورة يمكن أن يستفـاد منها كما استفيد من المسند المنقوش على الحجر .

وورد ان رجلاً قال لابن عباس : « معاشرَ قريش ، من أين أخذتم هذا الكتاب العربي قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، تجمعون منه ما اجتمع ، وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام ؟ قال : أخذناه من حرب بن أمية . قال : فمن أخذه حرب ؟ قال : من عبدالله بن جدعان ، قال : فمن أخذه ابن جدعان ؟ قال : من أهل الأنبار ، قال : فمن أخذه أهل الأنبار ؟ قال : من أهل الحيرة ، قال : فمن أخذه أهل الحيرة ؟ قال : من طارىء طرأ عليهم من اليمن من كندة . قال : فمن أخذه ذلك الطارىء ؟ قال : من الخفلجان بن الوهم كاتب الوحي لهود عليه السلام »[1] .

وذكر بعض العلماء ان أول من وضع الخط العربي وألّف حروفـه وأقسامه ستة اشخاص من طسمٍ ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت اسماؤهم : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، فوضعوا الكتابـة والخط على اسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في اسمائهـم ألحقوها بها ، وسمّوها الرّوادف ، وهي : ثخذ ضظغ[2] .

وذكر بعض اهل الأخبار ان (كلمن) كان رئيس ملوك مدين الذين وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف اسمائهم ، وقد هلكوا يوم الظلة ، فقالت ابنة كلمن ترثي اباها :

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظله
جعلت نار عليهم دارهم كالمضمحله[3]

---

١ المزهر (٢/٣٤٩) .
٢ حكمة الاشراق (٦٤) ، (ستة اشخاص من طفيم) ، نزهة الجليس (٢/٦٣) .
٣ نزهة الجليس (٢/٦٣) ، المزهر (٢/٣٤٨) .
كلمون هد ركني هلكه وسط المحله

ويوم الظلة غيم تحته سموم ، او سحابة أظلتهم ، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالتهم من الحر ، فأطبقت عليهم[1] . وقد أشير الى عذاب يوم الظلة في القرآن الكريم[2] . وذكر أن هذا العذاب أصاب قوم (شعيب) لتكذيبهم رسالته ، فرفع الله غمامة فخرجوا اليها ليستظلوا بها فأصابهم بها عذاب عظيم . التهبت عليهم وأحرقتهم[3] . ولما كان أبجد هوز ملوك مدين ، وأهل مدين هم قوم شعيب ، ربط أهل الأخبار مصيرهم بمصير قوم شعيب ، وجعلوا نهايتهم يوم الظلة . فالكتابة على رأي هؤلاء تعود الى هؤلاء الملوك ، الذين هلكوا بذلك اليوم .

ورويت الأبيات على هذه الصورة :

كلمن هدّم ركني هُلكهُ وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ ـحتف تحت ظله
كونت ناراً ، وأضحت دار قومي مضمحله[4]

ووردت على هذه الصورة :

كلمن هدّم ركني هلكه وسط المحله[5]
سيد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظله
جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضمحله[6]

وقد تعرض (المسعودي) لموضوع الحروف ، فقال : « وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا في ممالك متصلة ومنفصلة ، فمنهم المسمى بأبي جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل ، وأحرف

---

١ تاج العروس (٤٢٧/٧) ، (ضلل) .
٢ الشعراء ، ٢٦ ، الاية ١٨٩ .
٣ تفسير الطبري (٦٦/١٩ وما بعدها) .
٤ اليعقوبي ، مروج (١٢٩/٢) ، (دار الاندلس) ،
كلمون هد ركني هلكه وسط المحله
المزهر (٣٤٨/٢) ،
٥ « ابن امي هد ركني » ، تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .
٦ تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .

الجمل على أسماء هؤلاء الملوك ، وهي التسعة والعشرون حرفاً التي يدور عليها حساب الجمل » . « وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكان هوز وحطي ملكين ببلاد وج ، وهي أرض الطائف ، وما اتصل بذلك من أرض نجد ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل : ببلاد مصر ، وكان كلمن على ملك مدين ، ومن الناس من رأى أنه كان ملكاً على جميع من سمينا مشاعاً متصلاً على ما ذكرنا ، وأن عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم»[1].

وأورد (المسعودي) أبياتاً زعم أن (المنتصر بن المنذر المديني) قالها في هؤلاء الملوك ، هي :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة أتيت بها عمراً وحيّ بني عمرو
هُمُ ملكوا أرض الحجاز بأوجهٍ كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
ملوك بني حُطّي وسعفص ذي الندى وهوّز أرباب البنيّة والحجر
وهم قطنوا البيت الحرام ورتبوا خطوراً وساموا في المكارم والفخر[2] .

وقد وردت في (تاج العروس) على هذا النحو ، وقد نسب قولها الى رجل من اهل مدين ، ذكر انه قالها يرثيهم :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة سبقت بها عمراً وحيّ بني عمرو
ملوك بني حطّي وهوّز منهم وسعفص اهل في المكارم والفخر
هم صبحوا اهل الحجاز بغارة كمثل شعاع الشمس او مطلع الفجر[3]

وروي ان (عمر بن الخطاب) لقي أعرابياً فسأله هل تحسن القراءة؟ فقال : نعم . قال : فاقرأ أم القرآن ؟ فقال الأعرابي والله ما أحسن البنات فكيف الأم ! فضربه عمر بالدرة وأسلمه الى الكتاب ليتعلم . فمكث حيناً ثم هرب ، ولما رجع لأهله أنشدهم :

---

١ مروج ، للمسعودي (٢/١٢٨) ، (دار الاندلس) .
٢ المسعودي ، مروج (٢/١٢٩) ، (دار الاندلس) ، حفني بك ناصف (٤٧) ، (أورد الابيات مع بعض الاختلاف) ، المزهر (٢/٣٤٨) .
٣ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .

أتيت مهاجرين فعلمونـــي ثلاثة أسطر متتابعـــات
كتاب الله في رقٍ صحيح وآيات القرآن مفصلات
فخطّوا لي أبا جاد وقالوا : تعلم سعفصاً وقريشات
وما أنا والكتابة والتهجي وما حظ البنين مع البنات[1]

ويرجع أهل الأخبار (الروادف) ، أي الحروف : الثاء ، والخاء ، والذال ، والضاد ، والظاء ، والغين الى أيام الملوك المذكورين في بعض الروايات . وهي حروف لم ترد في تركيب الأبجديات السامية القديمة ، لأنها غير واردة في أكثر لهجاتها ، لذلك وضعها أهل الأخبار في آخر الأبجدية ، فأكملوا بذلك الأبجديـــة العربية . وقد ألحقها الكتاب بها بعد أن تبين لهم بالطبع أن في العربية حروفاً غير موجودة في الأبجدية المذكورة ، فأوجدوها بوضع علامات على الحروف المذكورة التي لم تكن معلمة ، فعبرت عن أسماء الحروف الناقصة واستعملوها في الكتابـــة دون أن يعملوا على إيجاد حروف جديدة للتعبير عن الحروف الناقصة .

ولعلماء العربية مثل (سيبويه) والمبرد والسيرافي وغيرهم آراء في الأسماء المذكورة يفهم منها ان منهم من جعل بعض تلك الأسماء مثل (أبا جـاد) و (هواز) و (حطيا) أسماءً عربية ، وبعضاً منها مثل : سعفص وكلمن وقرشنات أعجميات. ومنهم من جعلها أعجميات[2] . ويظهر من مراجعة آرائهم هذه انهم كانوا قـــد عرفوا ترتيب حروف الأبجدية على النحو المتقدم ، فلما قرأوها على انها كلمات ، كما كان يفعل (بني إرم) وغيرهم في تعليمهم الكتابة والقراءة للمبتدئـــين تولد عندهم هذا القصص ، الذي قد يكون مصدره قصص قديم . ثم تولد لديهـــم قصص كونهم ملوكاً من مدين ، أو رجالاً من أهل الأنبار الى آخر ما رأيناه من قصص عن منشأ الحروف ، ليجدوا بذلك مخرجاً في تعليل تلك التسميات .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أول من أتى أهل مكة بكتابة العربيـة (سفيان ابن أمية بن عبد شمس) ، ثم انتشرت[3] .

---

١ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .
٢ نزهة الجليس (٢/٦٤) ، المزهر (٢/٣٤٧) .
٣ نزهة الجليس (٢/٦٤) .

وترجع أسانيـــد الروايات المذكورة الى (عبدالله بن عباس) ، و (كعب الأحبار) ، و(الشعبي) و (أبـي ذر) ، و (عوانة)، و (ابن الكلبي)، و (الشرقي بن القطامي) ، و (الأصمعي) و (الهيثم بن عدي)[1] .

ويظهر من هذه الروايات ومن روايات أخرى أن رأي علماء العربية أن الخط العربـي لم يكن أصيلاً في الحجاز ، وإنما دخله من اليمن ، أو مـــن العراق أو أرض مدين . وأن أهل مكة إنما تعلموه من الأماكن المذكورة ، في وقت غير بعيد عن الاسلام ، لا يمكن أن يرتقى عنه بأكثر من قرن ، إن لم يكن أقـــل من ذلك ، وفقاً لرواياتهم هذه . وأن أقدم من كتب به هم أهل مكة . ولذلك قدم أهل الأخبار خط أهل مكة على سائر الخطوط التي عرفت في الإسلام . وجعلوه أول الخطوط العربية وبعده المدني ، أي خط أهل المدينة[2] .

أما أن أصله من اليمن فدعوى لا يمكن الأخذ بها ، لأن أهـل اليمن كانوا يكتبون بالمسنـــد ، والمسند بعيد عن هذا القلم الذي يسميه أهل الأخبار : القلم العربـي أو الكتاب العربـي أو الخط العربـي بعداً كبيراً . وقد بقوا يكتبون بقلمهم هذا زمناً في صدر الإسلام . ثم ان الروايات التي ترجع علم مكة بالخط الى اليمن، هي آحاد بالنسبة الى الروايات الأخرى التي تنسب أخذ الخط من العراق .

وأما دعوى مجيئه من مدين ، أي من أعالي الحجاز الى مكة ، فدعوى أراها غير مستبعدة . لأن أهل هذه المنطقة كانوا قبل الميلاد وبعده من النبط . والنبط هم عرب . وقد سبق ان تحدثت عنهـــم . وكانوا يكتبون بخط أخذ من قـــلم (بني إرم) ، حروفه منفصلة ومتصلة . وترتيب أبجديته هو ترتيب (بني إرم) أي (أبجد هوز) . وقد طوّروه بعض التطوير ، فصار الكاتب يكتب به بالحبر بسرعة ، وهو سريع وسهل أيضاً عند حفره على الحجر أو المعدن أو الخشب ، ويناسب التاجر والكاتب ورجل الفكر . وقد وصلتنا كتابات كثيرة كتبت به . وفي ضمنها الكتابات الخمسة التي اعتبرها العلماء النموذج الأول والأقدم للكتابات المدونة بلغة قوم كانوا يتكلمون بالعربية ، غير ان عربيتهم كانت متأثرة بالنبطية عند الكتابة . أو انهم كانوا يكتبون بالنبطية ، غير ان نبطيتهم لم تكن صافيـــة

---

١ المزهر (٢/٣٤١) ، (النوع الثاني والاربعون : معرفة كتابة اللغة) .
٢ الفهرست (١٤) ، (الكلام على القلم الحميري) .

نقية ، بل كانت متأثرة بلغتهم اليومية العربية . وفي ضمنها كتابة (النمارة) التي يعود عهدها الى سنة (٣٢٨) للميلاد ، وكتابة (حرّان اللجا) التي هي أقرب هذه الكتابات الى عربيتنا . ونظراً الى ما نجده من تشابه في رسم الحروف بين أقدم الكتابات العربية وبين الخط النبطي ، وفي قواعد الإملاء وترتيب الأبجدية ، فلا يستبعد أن يكون أهل مكة قد أخذوا هذا الخط فكتبوا به . باحتكاكهم بأهل أعالي الحجاز وبلاد الشأم حيث كانوا يتاجرون معهم ، أو بمجيء النبط اليهم للإتجار تعلمه أهل مكة منهم .

وذهب الدكتور (خليل يحيى نامي)،الى أن أصل الكتابة العربية من الحجاز، لما كان للحجاز من مكانة روحية عند العرب ولاشتغالهم بالتجارة . والمكانة الروحية والتجارة تستدعيان القراءة والكتابة أخذوها من التجار النبط الذين كانوا يتوافدون عليهم للاتجار أو من اختلاطهم بالنبط أثناء ذهابهم الى بلاد الشأم . فهو يرى أن الخط النبطي هو والد الخط العربي ، ودليله أن ترتيب الحروف على طريقة أبجد هوز ، وترتيبها من حيث حساب الجمل ، أي جعل كل حرف من حروف أبجد هوز في مقابل رقم حسابي ، يردان في عربيتنا على نحو ما ورد عند النبط. مما يدل على أن الخط العربي أخذ من ذلك الخط ، أضف الى ذلك تشابه رسم الحروف المنفصلة والمتصلة في القلمين[1] .

وأما موضوع أخذ أهل مكة خطهم المذكور من العراق ، فرأي لا أستبعده أيضاً ، فقد كان عرب العراق يكتبون،ولهم مدارس لتعليم الكتابة ملحقة بالكنائس والأديرة ، وقد كان بين أهل مكة وبين عرب العراق ولا سيما الأنبار والحيرة اتصال تجاري وثيق ، وكان تجار مكة يأتون بتجارتهم الى الحيرة ويقيمون بها ، فلا يستبعد تعلمهم أو تعلم بعضهم الخط من أهل الحيرة ومن أهل الأنبار . كما كان للتبشير يد في نقل هذا الخط الى الحجاز وربما إلى مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد كان هؤلاء المبشرون يكتبون بقلم نبطي أو بقلم إرمي متأخر ، وهو والد القلم العربي الذي نكتب به . وقد كان المبشرون من أهل العراق نشطون في التبشير في جزيرة العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بينهم مبشرون حيريون

---

١ خليل يحيى نامي ، مجلة كلية الاداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٥ م ، مجلد ٣ ، جزء ١ (ص ١٠٢ وما بعدها) .

نقلوا الكتابة الى (دومة الجندل) والحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان كتبة الوحي ، إنما كتبوا بخط أخذ من (الجزم) ، أي من خط أهل الحيرة . وذلك بحكم اتصال أهل مكة بالحيرة ، اتصالاً تجارياً ، فتعلموه منهم[1] . فهم يوافقون بذلك بعض الروايات العربية التي ترجع علم أهل مكة بالكتابة الى الحيرة .

وقد بقي أهل الحيرة يكتبون للولاة ، ويقرأون عليهم ما يرد اليهم من رسائل أهل العراق وبلاد الشأم،وذلك لحسن خطهم واتقانهم الكتابة . فكان لأبي موسى الأشعري كاتب ، ولما سأله (عمر) عن سبب اتخاذه كاتباً من النصارى أجابه : (له دينه ولي كتابته) . ولما أراد (عمر) اختيار كاتب حاذق حافظ ذكر له غلام نصراني من أهل الحيرة[2] .

ومما يلفت النظر ويسترعي الانتباه ، هو أن المنطقة التي يذكر أهل الأخبار أنها كانت الأرض التي نبت بها الخط العربي ، وهي الأنبار والحيرة ، لم تعط الباحثين حتى الآن أي نص مكتوب . كما أن مكة المدينة الآخذة للخط لم تعطنا أيضاً أي نص جاهلي مكتوب . مع أن نصوص هذه الأرضين تهمنا بصورة خاصة، لما لها من علاقة بالخط العربي الذي نتكلم عنه ، وباللغة التي نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر الجاهلي ، وبالأدب الجاهلي . فلِمَ لم تصل نصوص الينا من العراق ولا من مكة مع أن أهل مكة كانوا يكتبون عند ظهور الإسلام ، وكذلك أهل الحيرة كانوا يكتبون ، ولهم دواوين في أخبارهم ، رجع اليها ابن الكلبي ، كما نص على ذلك . هل سبب عدم وصولها ، أن الذين كتبوا بهذا القلم إنما كتبوا على مواد سريعة التلف وبالحبر ، ولذلك ، تلفت ، ولم تتمكن من العيش طويلاً . كما تلفت مخطوطات أهم منها شأناً مثل النسخ الأولى للقرآن الكريم،والنسخ الأصلية من رسائل وكتب الرسول الى الملوك والأمراء والى أصحابه. وكذلك خطوط الخلفاء الراشدين وسجلات دواوينهم وما شاكل ذلك من وثائق . قد يكون ما ذكرته هو السبب في عدم وصول نص من هذه الأرضين الينا ، وقد تكون هنالك أسباب أخرى . على كل ، علينا ألاّ نيأس من المستقبل، فلعل

---

١ Die Araber, II, S. 357.

٢ عيون الاخبار (١/٤٣) .

الباحثين سينقبون في باطن الأرض وينبشون الأماكن الأثرية فيجدون أشياء ، هي تحت قشرة الأرض في الوقت الحاضر . فيكون من يأتي بعدنا سعداء بالطبع لوقوفهم على أشياء حرمنـــا من رؤيتها نحن فصرنا في جهل من أمرها ، وصاروا هم في نعيم من العلم .

وقد ذهب (جرجي زيدان) الى أن المضريين الذين تحضروا وأقاموا في العراق وفي بلاد الشأم ، اقتبسوا الكتابة من جيرانهم ، فكتب منهم من كتب بالعبرانية وكتب منهم من كتب بالسريانية ، ولكن القلمين النبطي والسرياني ظلا عنـدهم الى ما بعد الفتوح الإسلامية ، فتخلف عن الأول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الإسلام الحيري نسبة الى الحيرة ، وهي مدينة عرب العراق قبل الإسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها .

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السرياني، في جملتها قلم يسمونه (السطرنجيلي) كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس ، فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الاسلام، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم وعنه تخلف الخط الكوفي . وهما متشابهان الى الآن[1] .

ثم تعرض الى ناقل الخط الى مكة ، فقال : « واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر أن أهل الأنبار نقلوه ، وذلك أن رجلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هـذا الخط من الأنبـار وخرج الى مكة فتزوج الصهبـاء بنت حرب بن أمية أخت أبـي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من أهل مكة ، فكثر من يكتب بمكة من قريش عنـد ظهور الإسلام ، ولذلك توهم بعضهم أن أول من نقل الخط الى العرب سفيان بن أمية[2] .

ولما أراد ابداء رأيه في أصل الخط العربـي جمع بين الرأيين : الرأي القائـل أن أصل الخط العربي من العراق ، والرأي القائل أن أصله من حوران ، فقال: « والخلاصة على أي حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في أثنـاء

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٨) ، (الخط العربي) .
٢ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٨) ، السجستاني ، المصاحف (٤) .

تجاراتهم الى الشام ، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً: الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية ، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية . ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي — فضلاً عن شكله — أن الألف اذا جاءت حرف مدّ في وسط الكلمة تحذف، وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية، وكان ذلك شائعاً في الإسلام ، وخصوصاً في القرآن، فيكتبون (الكتب) بدل (الكتاب) ، و (الظلمين) بدل (الظالمين)[1] .

والقلم الكوفي هو من أقدم الأقلام العربية الإسلامية . وهو كما ذكرت قبل صفحات ، قريب الشبه بالقلم السطرنجيلي ، قلم المصاحف عند نصارى العراق ، ومن أجلّ أقلامهم لاستخدامه في كتابة الكتابات الدينية ، ومنها الأناجيل . وقد أخذ من القلم الحيري على ما يظهر ، لأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (الجزم)، والجزم وليد السطرنجيلي ، ذلك لأن الكوفة نشأت في خلافة (عمر) ، فانتقل اليها في جملة من انتقل اليها أهل الحيرة ، الكتاب بالقلم الجزم . ولهذا صار قلم الكوفة ثقيلاً في الكتابة ذا زوايا مربعة وحروفاً مستقيمة ، والكتابة تميل الى التربيع[2] . وقد أخذ من (الجزم)[3] ، ونسب الى الكوفة لظهوره لأول مرة بها في الإسلام .

ولا يستبعد أيضاً أخذ أهل مكة خطهم المدور المسمى (النسخ) من (حوران) أو من (البتراء) و (العلا) فبين مكة والمكانين المذكورين اللذين سكن بهما النبط اتصال وثيق . أو من الحيرة او الأنبار . فالخط المدور هو قلم النبط المتأخر ، وقلم كتبة العراق أيضاً ، وهو والد القلم (النسخ) . ومن الخطأ اعتبار (النسخ) وليد الخط الكوفي[4] . لأن الخط الكوفي هو الجزم أو قلم آخر مثله اشتق من القلم المربع الزوايا (السطرنجيلي) ، بينما النسخ وليد القلم المدور الذي أستطيع تسميته

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٩) .
٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (حـ ١ ص ١٥) .
٣ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، ١٩٥٢ م ، (ص ٤٢١) .
٤ الابحاث ، ١٩٥٢ م (حـ ١ ص ١٥) .

بالمشق مجاراة للبطليوسي ، الذي شخصه بأنه قلم أهل الأنبار .

ويرى بعض الباحثين أن القلم العربي قد أخذ من قلم بني إرم . وذلك أن السريان الذين هم من (بني إرم) كانوا قد طوروا القلم الإرمي ، وكتبوا بقلمين : قلم قديم كتبت به الأناجيل والكتب المقدسة ، وهو المربع،ذو الحروف المستقيمة ذات الزوايا المربعة ، الذي هو الخط (الاسطرنجيلي) ، وقلم سهل ذو حروف مستديرة أي على شكل أقواس ، هو قلم النسخ . وقد عرف العرب القلمين وكتبوا بهما ، فسموا السهل النسخ والآخر الكوفي[1] .

وحجتهم في ذلك ان القلم العربي أخذ بترتيب (أبجد هوز حطي) ، وهو ترتيب وجد في لغة (بني إرم) ، كما أخذ بهذا الترتيب بحساب الجمل . وهو ترتيب موجود عند بني إرم أيضاً . كما أخذ بقواعد من قواعد رسم الحروف في الإملاء موجودة في خط (بني إرم) ، مثل قاعدة ربط أو فصل الحروف عند تدوين الكلمة ، وقاعدة حذف الألف عند وقوعه في وسط الكلمة ، في رحمان ومساكين ويتامى ومساجد وكتاب وابراهيم واسحاق واسماعيل ، فإنها كتبت في خط المصاحف بدون ألف . ومثل حذف ألف فاعل وتفاعل في السريانية وفي العربية أيضاً ، كما في بارك حيث كتبت (برك) في خط المصاحف ، ومثل حذف الألف من ضمير الجمع المتكلم (نا) ، كما في (أرسلنك) و (اصطفينه) و (بشرنه) ، في موضع (ارسلناك) و (اصطفيناه) و (بشرناه) ، وذلك في خط المصاحف ، وحذف ألف جمع المؤنث السالم في السريانية وفي العربية ، كما (صدقت) و (طيبت) ، بدلاً من صدقات وطيبات . ومن هذا القبيل أيضاً ، تدوين (شهد) و (كفرين) ، بدلاً من شاهد وكافرين . ومثل حذف ياء المتكلم في السريانية وفي القلم العربي القديم ، كما في كتابة يرب في موضع يا ربي[2] .

ورأيي ان القول الجزم في أصل قلم أهل مكة ، هل هو من العراق أو من بلاد الشأم ، يجب أن يكون للكتابات . فمتى عثرنا على كتابات مدونة بالعربية

---

١ الدراسات الادبية ، العدد الاول ، السنة الثانية ، ١٩٦٠ م (ص ٧٦ وما بعدها) ، (مقال للدكتور أنيس فريحة) .

٢ الدراسات الادبية ، السنة الثانية ، العدد الاول (ص ٧٦ وما بعدها) .

بالحيرة أو بالأنبار أو بالأماكن الأخرى من العراق تعود الى الجاهلية والى صدر الاسلام وعلى كتابات مثلها من حيث الزمن يعثر عليها في بلاد الشأم وفي الحجاز أو نجد أو أي مكان آخر من جزيرة العرب ، وقارناها بعضها ببعض ، وطابقنا فيما بين خطوطها ورسم حروفها وما شاكل ذلك ، جاز لنا حينئذ القول بأصل قلم مكة والأقلام الأخرى المشابهة له . وبأصل اللغة التي دونت به،ومزاياها والأماكن التي كانت تتكلم بها . وعندئذ نحل مشكلة أصل اللغة العربية الفصحى أيضاً ، وهي من أهم مشكلات تأريخ الأدب الجاهلي ولا شك .

وأما جمهرة المستشرقين المعاصرين الذين عنوا بدراسة تطور الخطوط السامية ، ومنشأ الخطوط العربية ، فقد رأوا ان الخط العربي الذي دوّن به القرآن أخذ من الخط النبطي المتأخر الذي كان يستعمله النبط ، وهو خط تولد من القلم الإرمي المتفرع من الفينيقية على رأي المستشرق (هومل)[1] . وقد استعمل في تيماء وبين النبط الذين كانوا يقيمون في أعالي الحجاز وفي سينا[2] . وقد عثر على كتابات دونت به في مواضع مختلفة من الحجاز واليمن .

وسند القائلين بهذا الرأي ودليلهم هو عدد من الكتابات عثر عليها السياح ، كتبت بلهجة غير بعيدة عن اللهجة العربية التي نزل بها القرآن، وبحروف مرتبطة، وبالقلم النبطي المتأخر الشبيه جداً بأقدم الخطوط العربية ولا سيما الكوفية منها . ومن مميزاته ارتباط بعض حروفه ببعض وكتابة بعض الحروف في نهاية الكلمة بشكل يختلف عن رسم الحروف التي من نوعها المستعملة في أوائل الكلمة أو أواسطها .

ولهذه الكتابات على قلة عددها أهمية كبيرة لدى العلماء ، لما لها من خصائص ومميزات لغوية تفيد في دراسة تطور اللهجات العربية ، وفي دراسة تطور القلم العربي . وقد تكون مقدمة لعدد آخر من الكتابات المكتوبة بهذا الخط .

---

١ Ency. Brita., I, p. 684, Grundriss, I, S. 154.
ناصر النقشبندي ، منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين ، مجلة سومر ، كانون الثاني ١٩٤٧ م ، (١٢٩ وما بعدها) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، المجلد الاول ، الجزء الاول ، مايو ١٩٣٥ م .

٢ Ency. Brita., I, p. 684.

وأقدم هذه الكتابات الكتابة التي يقال لها كتابة (أم الجمال) الأولى ويعود تأريخها الى سنة (٢٥٠) أو (٢٧٠) للميلاد . وقد وضعت شاهداً على قبر (فهر برسلي) (فهر بن سلي) مربي (جديمت) (جدمت) (جديمة) جذيمة ملك (تنوح) (تنوخ) ، وعثر عليها في موضع يقال له (أم الجمال) ، في جنوب حوران من أعمال شرق الأردن[1] . ويعتقد (ليمان) ، أن تأريخ هذا النقش لا يبعد كثيراً عن تأريخ كتابة أخرى هي كتابة النمارة (ن م ر ت) . ونجد في هذه الكتابة حروفاً غير مرتبطة وحروفاً مرتبطة مشابهة لبعض حروف الخط الكوفي . وقد كتبت بالإرمية ، ومع ذلك فإن لها أهمية لوجود أسماء عربية فيها ، ولأن القبائل العربية الشمالية كانت تستعمل الإرمية في الكتابة[2] .

وقد عثر الباحثون على كتابات معدودة سبقت هذه الكتابة ، دُوّنت بالقلم النبطي أيضاً ، هي كتابة عثر عليها في (وادي المكتب) في طور سيناء ، يعود تأريخها الى سنة (١٠٦) من سقوط (سلع) ، المقابلة لسنة (٢١٠) للميلاد، وكتابة ثانية يعود تأريخها الى سنة (١٢٦) من سقوط (سلع) أي سنة (٢٣٠) للميلاد . وقد وجدت في وادي فران بطور سيناء كذلك ، وكتابة ثالثة هي من كتابات (طور سيناء) أيضاً ، وقد أرخت بسنة (١٤٨) من سقوط (سلع) أي سنة (٢٥٣) للميلاد ، وكتابة رابعة عثر عليها في الحجر ، وتأريخها سنة (١٦٢) من سقوط (سلع) ، أي سنة (٢٦٧) للميلاد .

ولكن هذه الكتابات بعيدة بعض البعد عن القلم العربي ، وأما لغتها فنبطية ، ونجد نص (الحجر) (مدائن صالح) ، وقد حوى كلمات كتبت بقلم ثمودي . ولذلك فإن له ميزة من هذه الناحية على الكتابات الأخرى ، ومنطقة الحجر من

---

١ السامية (١٣٩) ، (سنة ٢٧٠) ، خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، مايو ١٩٣٥ ،
De Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitique, PL. 15, 11.

٢ السامية (١٤٠) ، مجلة سومر (م ٣ ، ح ١ ، كانون الثاني ١٩٤٧ ، ص ١٣٠) ،
Nabia, 4, Littmann, Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, Princeton University Expeditions to Syria, in 1904-1905, and 1909, p. 37, Cantinean, Nabatéen et Arabe, pp. 72-79, Institut d'Etudes Orientales, Annales, I, 1934-1935.

المناطق التي عثر فيها على عدد من كتابات قوم ثمود . ونظراً الى أن خط نص (أم الجمال) أقرب الى الخط العربي من الكتابات المذكورة التي سبقته ، لذلك قدمته عليها .

وتلي كتابة أم الجمال الأولى في الزمن كتابة النمارة ، وقد عثر عليها المستشرق الفرنسي (دوسو) M. René Dussaud في النمارة في الحرة الشرقية من جبل الدروز، و (النمارة) قصر صغير كان للروم. وجدها على قبر امرىء القيس الأول ابن عمرو ملك العرب المتوفى في يوم ٧ بكسلول من سنة ٢٢٣ ، المقابلة لسنة ٣٢٨ للميلاد، وقد دونت سنة الوفاة ، وهي سنة تأريخ الكتابة كذلك وفقاً لتقويم (بصرى) وهو التقويم الذي كان يستعمله عرب هذه الأطراف ونبطها . وتعدُّ هذه الكتابة أول كتابة وأقدم كتابة عثر عليها حتى الآن مدونة باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن ، وإن كتبت بالقلم النبطي المتأخر وبأسلوب متأثر بالإرمية [1] .

وعثر على كتابة في خرائب (زبد) بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب ، كتبت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية ، يرجع تأريخها الى سنة (٦١٢) للميلاد (٨٢٣) للتقويم السلوقي[2] . والمهم عندنا هو النص العربي ، ولا سيما قلمه العربي . أما من حيث مادته اللغوية ، فإن أكثر ما ورد فيه أسماء الرجال الذين سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت فيها الكتابة [3] . وقد قرأ العالم (ليدزبارسكي) الكلمة الأولى منه (بسم) . أما الكلمة الثانية ، فهي (الإلـه) فأصبح مطلع النص : (بسم الإلـه) ، فإذا كانت القراءة هذه صحيحة، تكون لكلمة (بسم الإلـه) أهمية كبيرة في موضوع الفكرة الدينية . أما العالم (ليتمن) فقد قرأ الكلمة الأولى منه (بنصر) ، فتكون فاتحة النص : (بنصر الإلـه)[4] .

---

١ Fritz Hommel ,Grundriss der Geographie und Geschichte des alten Orients, München, 1904, BD., I, S. 155, Dussaud, Les Arabes en Syrie, p. 34, Nabia, p. 4, Revue Archéologique, 31 Série, XLI, (1911), p. 411.

٢ Grundriss, I ,S. 156, E. Sachau, Eine Dreisprachige Inschrift aus Zebed : Monatsberichte der Preussiche Akademi der Wissenschaften, Berlin, 10 Febr. 1881, S. 169, Zur Trilinguis Zebedaea, in ZDMG., 36, ,1882), S. 345 - 352.

٣ السامية (١٩١) ٠
Lidzbarsky, Handbuch der Nordsemit. Epigraphik, Weimar, 1898, S. 484, Ephemeris, Giessen, 1902, BD., 2, S. 35.

٤ السامية (١٩١) ٠ A. Littmann, in Rivista degli Studi Orientali, 1911, p. 195.

وقد دوّن النص العربي على هذه الصورة :

١ — ..م الإلـه سرحو بر امت منفو وهنى برمر القيس .

٢ — وسرحو بر سعدو وستّرو وشريحو بتميمى .

ومعناه : بسم الإلـه . سرحو بن أمت منفو ، وهنيء بن امرىء القيس ، وسرحو بن سعدو ، وستّر (ستار) (ساتر) وشريح . أتمّوا .

والنص العربي ، ليس ترجمة للنص السرياني أو اليوناني ، لذلك ذهب بعض الباحثين الى احتمال كونه متأخراً بالنسبة الى النصين المذكورين ، أي انـه كتب بعدهما . وهو يتناول تخليد عمل المذكورين في بناء الكنيسة .

وعثر المستشرقون في حرّان اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز على كتابة أخرى مدونة باليونانية والعربية قيل لها (نقش حرّان) ، وقـد وضعت فوق باب كنيسة ، وصاحبها (شرحيل بر ظلمو) (شراحيل بن ظالم) (شرحيل بن ظالم) ، ويعود تأريخ الكتابة الى عام (٤٦٣) من (الأندقطية الأولى) ، وتقابل سنة (٥٦٨) للميلاد[1] . أما النص العربي ، فقد أرخ بسنة (٤٦٣) أيضاً ، وأضيف الى هذا التأريخ عبارة (بعد مفسد خيبر بعم) أي (بعام) . ومعنى هذا ان حدثاً تأريخياً كان قد وقع قبل هذا التأريخ بسنة صار النـاس هنالك يؤرخون به ، فأرخ النص به . ويرى (ليتمن) ان ذلك يعني وقوع غزو على خيبر ربما قام به أحد ملوك غسان[2] .

وهذا النص هو من أهم النصوص المتقدمة وأكثرها قيمة بالنسبة لمؤرخ اللغـة العربية ، لأنه نص دوّن بلهجة القرآن الكريم ، باستثناء أثر سهل للنبطيـة برز عليه . ولأهميته هذه أدوّنه على نحو ما جاء في النص العربي : (انا شرحيل بر (بن) ظلمو بنيت ذا المرطول (سنت) سنة ٤٦٣ بعـد مفسد خيبر (بعم) (بعام) . فأنت أمام نص عربي واضح ، تفهمه من دون صعوبة ولا مشقة .

---

١ السامية (١٩٢) .
Nabia p. 5, Dussaud, Mission, p. 324, Grundriss, S. 156, Schröder, in ZDMG. 38, (1884), p. 530.

٢ السامية (١٩٢) .
A. Littmann, In Revist, 1911, p. 195, Nabia, p. 5, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und verwandte, Gebiete, Leipzig, 1922, VII, S. 197.

على حين نجد النصوص الأخرى وقد كتبت بنبطية متأثرة بالعربيـــة الشمالية بعض التأثر . ولهذا فإني أفرّق بين هذا النص وبين النصوص السابقة له ، وأعدّه أول نص وصل الينا حتى هذا اليوم كتبَ بلهجة عربية القرآن الكريم .

وتعد الكتابة التي عثر عليها في موضع (أم الجمال) وقيل لها كتابة (أم الجمال الثانية) تفريقاً لها عن كتابة أم الجمال الأولى ، أحدث ما عثر عليه من كتابات بهذا القلم الذي نتحدث عنه ، وباللهجة النبطية المتأثرة بلهجة القرآن ، أو باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن . وهي لا تحمل تأريخاً . غير أن من عالج أمرها من المستشرقين يرى أنها تعود الى القرن السادس للميلاد[1] . ولغتها قريبـــة من اللغة العربية المعروفة ، كما أنها متحررة من النبطية والإرمية الى حد كبير .

وعثر في اليمن على بعض كتابات نبطية لعلها من آثار التجار النبط الذين كانوا يذهبون الى اليمن بقصد التجارة ، ولا سيما في القرنين الأولين للميلاد ، أو من آثار تجار أهل الحجاز أو من أهل اليمن ، كانوا قد تعلموا الكتابة بهذا القلم الذي أخذ ينتشر بعد الميلاد لأنه أسهل في الاستعمال من المسند الذي يحتـاج الى دقة في الرسم ، والى بطء في الكتابة . ولوحظ أن إحدى هذه الكتابات كتبت بالقـــلم النبطي المتأخر الذي يشبه القلم الذي استعمل في نقش (فهر بن سلي)[2] .

ولكن العلماء لم يتمكنوا من العثور على عدد كاف من الكتابات المدونة بهـذا القلم ،تكفي لإصدار حكم علمي عن وقت دخول القلم النبطي المتأخر الى الحجاز واليمن ومدى انتشاره بين الناس . ولما كان القلم النبطي المتأخر قد ظهر بعد الميلاد على رأي أكثر العلماء ، يكون هذا الخط قد وصل الحجاز واليمن بعـد الميلاد بالطبع بالاتصال التجاري والقوافل الـــتي كانت تقوم برحلاتها بين اليمن وبلاد الشأم ، وبواسطة النصرانية التي وجدت لها سبيلاً الى اليمن .

ويلاحظ أن الـــذين كتبوا بالقلم العربـي الشمالي ، الذي أخذ منه قلم مكة ، هم من العرب النصارى في الغالب ، فأهل الأنبار ، والحيرة ، وعين الشمس ،

---

١ Nabia, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift fur Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, 197-204.

٢ Nabia, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, S. 197-204.

ودومة الجندل ، وبلاد الشأم ، كانوا من النصارى ، فلا استبعد احتمال استعمال رجال الدين للقلم السرياني المتأخر ، الذي كوّن القلم النبطي في كتابة العربية ، لحاجتهم الى الكتابة في تعليم أولاد النصارى الكتابة ، وتثقيفهم ثقافة دينية ، فكانوا يعلمونها في المدارس الملحقة بالكنائس ، وربما نشروها في البحرين ، أي في سواحل الخليج حيث كانت هنالك جاليات نصرانية ، وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب التي كانت النصرانية قد وجدت سبيلاً لها بينها ، ولا استبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على كتابات مطمورة كتبت بهذا القلم .

وتفيدنا دراسة شكل خط هذه النصوص فائدة كبيرة في الوقوف على تطور الخط العربي ، فبين رسم هذه الخطوط وبين رسم أقدم الخطوط العربية الاسلامية تقارب كبير ، يشير الى اشتقاق القلم الذي دوّن به الوحي من هذا القلم ، وهو القلم الذي كان يكتب به عرب العراق كذلك على ما أرى . وهو قلم وصل بين حروفه ، وفصل في مواضع أخرى . وهو يختلف بذلك عن القلم المسند الذي استعمل حروفاً منفصلة فقط ، ولم يعرف الحروف المتصلة ، كما ان شكل حروفه بعيد جداً عن شكل حروف هذا القلم ، وهو أسهل وأسرع في الكتابة على الكاتب من المسند .

ونرى في هذه الصورة التي تضم رسم الحروف في الخط النبطي المتأخر والقلم العربي القديم ، تشابهاً كبيراً في الشكل ، ينبئك بوجود نسب بين القلمين ، وان القلم العربي القديم ، قد تولد منه . ولا أستبعد ان يكون قلم أهل الحيرة هو هذا القلم نفسه ، استعملوه في تدوين العربية . وقد رأينا ان النصوص القليلة المكتوبة بنبطية متأثرة بالعربية ، قد كتبت بهذا القلم ، وبينها نص (النمارة) الذي هو شاخص قبر (امرىء القيس) أحد ملوك الحيرة .

وإني لا أستبعد احتمال عثور المنقبين والباحثين في المستقبل على كتابات عربية قديمة تعود الى الجاهلية الملاصقة للاسلام والى أيام الرسول بكثرة تمكن العلماء من وضع رأي واضح عن منشأ وتطور الخط العربي القرآني .

وقد استعملت جملة (الخط العربي القرآني) ، لأن القرآن هو في الواقع صاحب الفضل على هذا الخط في تخليده وتثبيته لأمر الرسول بتدوين الوحي به ، اي بهذا القلم العربي القديم الذي أتحدث عنه ، الذي أخذه اهل مكة عن اهل

(الحيرة) ، أو عن (بشر بن عبد الملك) السكوني ، من (دومة الجندل) على رواية أهل الأخبار . واني أرى ان للبحث عن الكتابات العربيـة القديمة في الحجاز وفي (دومة الجندل) و (الحيرة) و (الأنبار) و (عين التمر) ، وفي القرى العربية الأخرى التي أقيمت على الفرات وفي بلاد الشأم أهميـة كبيرة بالنسبة لبحثنا في تأريخ نشوء وتطور الخط العربي القرآني ، لأني أكره الطرق التي يأخذ بها بعض الباحثين من اللجوء الى الحدس والظن في وضع آراء علميـة قاطعة ومهمة ، مثل الخط ومنشئه وتطوره وما شابه ذلك ، لمجرد رأي ورد عند أهل الأخبار ، او ظن مال اليه عالم ، وعندي ان آراءاً مثل هذه يجب ألا تقال إلا باستناد على دليل مادي ملموس ، مثل أثر ، او مصدر تأريخي قديم محترم .

والصورة التي نراها في الصفحة المقابلة تمثل نماذج من القلمـين : القلم النبطي المتأخر ، والقلم العربي القديم ، مأخوذة من مختلف الصور الأصلية التي عثر عليها العلماء في مختلف الأنحاء من العراق وبلاد الشأم وجزيرة العرب .

ويرى المستشرق (وايل) Weil أن الترتيب الذي يرد للحروف العربية على طريقة : (أبجد هوز حطي ... الخ) ، هو ترتيب أخذه العرب من النبط أو اليهود ، وقد أخذه النبط والعبرانيون من القلم الإرمي . وتشير هذه الطريقة بكل جلاء الى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرع عن الخط الإرمي[1] . أمـا الترتيب الذي عند الكنعانيين ، فهو هذا الترتيب مع زيادة الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . ويرى بعض العلماء أن العبرانيين أخذوا ترتيبهم هـذا من الكنعانيين[2] . ونجد هذا الترتيب عند الفينيقيين أيضاً ، ولهذا يرى بعض الباحثين أن العبرانيين والآراميين أخذوا الكتابة من الفينيقيين، وأخذوا منهم استعمال الحروف للعدد أيضاً ، على نحو ما نجده في العربية من استعمالها في حساب الجمل[3] .

وقـد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي تمثل حرف (التاء) فيها آخر حروف الأبجدية التي بلغ عدد حروفها اثنان وعشرون حرفاً، الحروف التي لم ترد

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ السامية (١٠٢) .

٣ الابحاث ، (١٩٥٢ م) (حـ ١ ص ٥ وما بعدها) .

نماذج من القلمين النبطى المتأخر والقلم العربى القديم يمثل العمود « ١ » نماذج من الحروف العربية المستعملة فى القرن الأول للهجرة ويمثل العمود « ٢ » نماذج من حروف كتابتى زبد وحران · وأما العمودان « ٣ » و « ٤ » فيمثلان نماذج من كتابة النمارة وبطرا ·

في هذه الأبجدية ، ولكنها ترد في العربية ، ودعوها بـ (الروادف)[1] . وضعوها بصورة ينفي عنها كل نشاز قد يظهر بين رسمها ورسم الحروف الأخرى ، وذلك باعتمادهم على تكرار الحرف ، وبذلك أولدوا الروادف المذكورة[2] .

ويظهر من الروايات العربية القديمة أن كتّاب الجاهلية المتصلة بالإسلام وكتاب صدر الإسلام كانوا يسيرون في تعلم الكتابة على طريقة (أبجد هوز) أي على طريقة الآراميين والنبط والعبرانيين . وقد ورد في الأخبار أن الناس في أيام (عمر ابن الخطاب) ، كانوا يتعلمون الكتابة على طريقة (أبجد هوز) . قال (القلقشندي) : « وقد جاء أنها كانت تُعلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويشهد لذلك قول الأعرابي في أبياته :

أتيت مهاجرين فعَلَّمُوني ثلاثة أسطرٍ متتابعات
وخطّوا لي أبا جاد وقالوا : تعلّم سعفصاً وقريشات »[3]

والترتيب الذي يعمل به الآن في البلاد العربية من الابتداء بالألف ثم بالباء ، فالتاء ، فالثاء ، فالجيم ، فالحاء ، فالخاء ... هو ترتيب وضع في زمن (عبد الملك بن مروان) ، عمل به (نصر بن عاصم) ، و (يحيى بن يعمر)العدواني . وقصد به ضم كل حرف الى ما يشبهه في الشكل ، وقد ساد هذا الترتيب ومشى. وجرى عليه أصحاب الصحاح ولسان العرب والقاموس ، وتاج العروس، وأصحاب معاجم اللغة في هذا اليوم[4] .

أما ما ورد في بعض الروايات من ان (أبا ذر الغفاري) سأل رسول الله عن الحروف ، فقال له انها تسع وعشرون ، وانها نزلت على ترتيب : (ا ب ت ث ج) ، أي على الترتيب الذي نسير عليه في الوقت الحاضر ، وانه عجب من قول الرسول له انها تسع وعشرون ، لأن حروف العربية هي ثمان وعشرون،

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ١٩٥٩ م ، (ص ٥٧٦) .

٣ صبح الاعشى (٣/١٩) .

٤ حفني بك ناصف ، تأريخ الادب أو حياة اللغة العربية ، (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (الطبعة الثانية) ، (الكتاب الاول) ، (ص ٢٧) .

ومن تأكيد الرسول له انها تسع وعشرون ، نزلت كلها على آدم[1] . فخبر غير صحيح ولا يُعوّل عليه ، وهو موضوع ، لما ذكرته من ان الترتيب المذكور انما ظهر في الاسلام .

هذا وإن مما يؤسف له كثيراً اننا لا نملك اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في أيام الرسول ، ولا نملك اي نسخة من نسخ القرآن او من صحفه المدونة في ايامه . فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم ، ولا نسخة (عثمان ابن عفان)[2] ولا النسخ التي دونت بأمره لتوزع على الأمصار ، ولا أية نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم. ولا نملك النسخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل الى الملوك او سادات القبائل والأمراء . نعم يقال إن هناك نسخاً من المصاحف ترجع الى ايام الخلفاء ، وقد دوّن بعض منها بأقلام أجلّة الصحابة ، وان هناك بقية من رسائل الرسول وان هناك كتابات يرجع تأريخها الى أيام الرسول[3] ، ولكن المتبحرين في العلم العارفين بكيفية تثبيت أعمار الوثائق لم يتمكنوا من البت في صحة هذه الدعاوى ، ولم يقطعوا بصحة هذه الوثائق . لذلك فليس لنا أمام هذه الحجج التي أبديت عن هذه الآثار سوى التحفظ والتوقف عن ابداء رأي فيها ، فلعل الأيام تهيء للقادمين من بعدنا وثائق جديدة تعود الى الأيام التي نبحث فيها .

هذا وان من الممكن التثبت في الوقت الحاضر من صحة الوثائق المنسوبة الى أيام الرسول او أيام من جاء بعده ، بعرضها على الفحوص المختبرية الحديثة ، التي باستطاعتها تقدير أعمارها ، وتثبيت أسنانها ، ولكني لا أعلم ان أحداً عرض هذه الوثائق لمثل هذه الفحوص .

هذا وللمادة التي دونت عليها تلك الكتابات ولندرة الورق إذ ذاك ولغلاء ثمنه، ولعدم ادراك الناس في ذلك الوقت لأهمية حفظ الوثائق ، ولتعرض تلك الوثائق الى عوامل عديدة من عوامل التلف والبلى مثل الحريق والماء والأرضة وما شاكل

---

١ صبح الاعشى (٣/٧ وما بعدها) ، (المسلك الثاني في وضع الحروف العربية) .

٢ ليس فيما يقال عن وجود نسخة عثمان من مصحف عثمان في « استانبول » أو في أماكن أخرى أساس من الصحة ، وانما هو زعم من غير دليل .

٣ M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, Islamic Culture, Vol. 13, NUM : 4, 1939, p. 427.

ذلك ، دخل ولا شك في اختفاء الخطوط القديمة التي دونت في الجاهلية المتصلة بالاسلام وفي صدر الاسلام ، مما أضاع علينا فوائد كثيرة كنا سننتفع بها لو كنا نملك تلك الوثائق ، ولكن من يدري فلعل الأيام ستعطف على الباحثين المساكين المتعطشين دوماً الى الوقوف على أخبار الماضين ، فتقدم لهم وثيقة او جملة وثائق تكون خير هدية لهؤلاء ، لا يوازيها في نظرهم اي ثمن من الأثمان التي تقاس بالورق وبالجنيهات او الدولارات .

ولكني أود أن أبين ان هذه الحقبة من الجاهلية المتصلة بالاسلام وكذلك أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين هي حقبة شحيحة جداً بالكتابات ، فما عثر عليه من الكتابات فيها محدود ، مع انها من أهم الأزمنة بالنسبة لنا لأنهـا ذات صلة وعلاقة مباشرة بظهور الاسلام . وينطبق ما أقوله هنا على كتابات المسند كذلك وعلى الكتابات المدونة باللهجات الجاهلية الأخرى ، ولجميعها أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ الذي يريد شرح تأريخ تلك الأيام التي ظهر فيها الاسلام . وفي جملة هذا التأريخ تأريخ تطور الخطوط العربية .

واذا كان ما ذكره الدكتور (م . حميد الله) عن الكتابات التي وجدها على الطرف الجنوبي لجبل سلع في المدينة المنورة ، والتي يرى ان تأريخها يرجع الى غزوة الخندق ، اي الى السنة الخامسة من الهجرة ، صحيحاً من الوجهة العلمية، فإننا نكون أمام أقدم كتابات عثر عليها حتى الآن بعربية القرآن الكريم[1] . وهي ستفيد الباحثين ولا شك في التعرف على تأريخ تطور الخط العربي ، وعلى أساليبه. وربما يعثر الباحثون في المستقبل على كتابات قد تكون أقدم من هذه أو من أيامها، لأن البحث عن الكتابات والآثار بصورة منتظمة وعلمية لم يأخذ مجراه في الحجاز حتى الآن .

وأشار (عـثمان رستم) Osman R. Rostem الى وجود كتابات بخط كوفي وبخطوط عربية أخرى في جبل سلع وفي وادي العقيق وعند جبل أحد وفي مواضع أخرى في مؤلفه عن الكتابات المدونة على الصخور في الحجاز ، لكنه لم يشر إلى تواريخ تلك الكتابات ولم ينشر صورها كلها[2] هذا وقد أشار غيره الى وجود هذه

---

١ M.Hamidullah, In Islamic Culture, Vol. 13, Num : 4, October, 1939, p. 427.

٢ Rock Inscriptions in The Hijaz, Le Caire, MCMXLVIII.

الكتابات . إلا أن أكثر ما كتب عن هذا الموضوع ، لم يكتب بقلم أصحاب الاختصاص ولم يصور تصويراً جيداً أو يدرس دراسة علمية في مكان وجوده . ثم إن معظم الكتابات لا تزال مهملة غير مصورة ولا منقولة مستنسخة ، لذلك فإن إبداء رأي علمي عن أصلها وتطورها غير ممكن في الوقت الحاضر . ولعل الحكومة السعودية ستهتم بهذه الناحية المهمة ، فترسل الى الباحثين العرب والمسلمين أو المستشرقين تستفتيهم في أمر هذه الكتابات . بعد أن تطلب من المتخصصين دراستها في مكانها وأخذ صور جيدة لها ، وطبع نسخ بواسطة الجبس أو بوسائل أخرى لهذه الكتابات ، ليكون من الممكن دراستها دراسة علمية .

الإعجام والحركات :

ولا بد لي هنا من التعرض لناحيتين مهمتين من نواحي تطور الخطوط عند العرب . هما : الإعجام والحركات .

ويراد بالإعجام ، تنقيط الحروف المرسومة بشكل متقارب أو بشكل واحد ، لتمييزها بعضها عن بعض . وذلك لأن هذه الحروف مثل الباء والتاء والثاء،والجيم والحاء والخاء،والدال والذال،والراء والزاء،والسين والشين، والصاد والضاد،والطاء والظاء،والعين والغين،والفاء والقاف ، إذا كتبت من غير نقط صار من الصعب على الإنسان التمييز بينها لأنها تكتب بشكل واحد ، فيلزم على القارىء عندئذ الرجوع الى علمه في اللغة وسليقته في الفهم لإدراك المعنى ، لأنها بشكل وبرسم واحد . فالباء والتاء والثاء بل وحرفا النون والياء أيضاً ، إذا كتبت في الكلمة ولا سيما في الوسط ، بغير نقط ، صار من الصعب تمييز هذه الحروف بعضها عن بعض ، وإدراك المعاني الصحيحة والمراد من الكتابة نتيجة لذلك . فللتغلب على هذه المشكلة أعجم علماء الخطوط بعض هذه الحروف ، بوضع نقط فوقها أو تحتها لتمييزها بعضها عن بعض ، وعرف هذا التنقيط بالاعجام[1] .

وقد وقع الاعجام في الإسلام على رأي أكثر العلماء . بعمل أبو الأسود الدؤلي

---

١ اللسان (٣٨٨/١٢) ، (عجم) ، صبح الاعشى (١٥٥/٣) ، مفتاح السعادة (٨٠/١) .

والخليل بن أحمد الفراهيدي وآخرون في قصص لا علاقة لذكره في هذا المكان . وهو مكان خصص لأقلام الجاهلية . أما بالنسبة الى الجاهلية ، فإننا لا نملك وثيقة معجمة . ونقش (حرّان اللجا) المكتوب بعربية شمالية مشوبة بالنبطية ، خال من الاعجام أيضاً ، وكذلك النقوش الأخرى المكتوبة بالنبطية المتأثرة بالعربية الشمالية . ولهذا فإني لا أستطيع الادعاء بأن الإعجام كان معروفاً بالقلم العربي المكي الجاهلي ولا بغيره من الأقلام العربية الجاهلية .

غير أن هناك رواية تنسب لابن عباس ، تزعم أن الثلاثة الذين هم من بولان من طيء ومن أهل الأنبار ، لما وضعوا الحروف وضعوها مقطعة وموصولة ، ثم وضع أحدهم وهو (عامر) الاعجام[1] . أي ان العرب وضعوا الاعجام في الوقت الذي اخترعوا فيه قلمهم العربي ، وجاء في كتاب النشر في القراءات العشر : « ثم إن الصحابة رضي الله عنهم ، لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين .. »[2] . وفي هذا الخبر دلالة على معرفة الصحابة بالنقط والشكل.

وهناك خبر يرفع سنده الى (ابن مسعود) ، يذكر أنه قال : « جوّدوا القرآن ليربو فيه صغيركم ، ولا ينأى عنه كبيركم » . وقد شرح الزمخشري ذلك بقوله : « أراد تجريده من النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشءٌ فيرى أنها من القرآن »[3].فيفهم من هذا الخبر أن التنقيط كان معروفاً،وأن (ابن مسعود) عرفه ، وأنه رأى تجريد القرآن من النقط ليصرف الصغير همه في فهمه فهماً عميقاً وفي إدراكه إدراكاً صحيحاً عن دراسة ، لأن تجريده يحمل الطالب على بذل الجهد في فهم غامضه ومشكله ومعناه فيرسخ فهمه في عقله ، أما إذا كانت الحروف معجمة ومشكلة ، فلا يجد الطالب ما يحمله على بذل الجهد وإجهاد نفسه لفهم القرآن . فتفتر همته عن فهمه ، ولا يبذل نفسه بذلاً مرضياً في تعلم كتاب الله .

---

١ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) ، (الكلام على القلم العربي) .

٢ ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر (٣٢ وما بعدها) ، مصادر الشعر الجاهلي (٣٥) ، للدكتور ناصر الدين الاسد .

٣ الزمخشري ، الفائق (١/١٨٦) ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (٩٣) .

وخبر آخر يدل على وجود الإعجام عند العرب ، رواه (سفيان بن عيينه)، يفيد ان (زيد بن ثابت) نقّط بعض الحروف[1] .

وورد ان بعض الباحثين عن الكتابات الاسلامية القديمة عثروا على آثار للنقط في بعض الوثائق القديمة . فقد ذكر الدكتور (جروهمن) انه وجد في وثيقة من وثائق البردي المدونة بالعربية واليونانية ويعود تأريخها الى سنة (٢٢) للهجرة حروفاً منقطة[2] . وهذا التنقيط إن صح وثبت ، فإنه يدل على وجود التنقيط في هـذا العهد . كذلك ذكر (مايس) G. C. Miles انه وجد حروفاً منقوطة في كتابة عثر عليها قرب الطائف يعود عهدها الى سنة (٥٨) للهجرة[3] . وإذا صح ان هـذه النقط قديمة قدم الخط ، فإن معنى هذا ان الكتابة على الحجر قد عرفت التنقيط أيضاً في هذا العهد وقبله ، إذ لا يعقل أن تكون أول كتابة على الحجر استخدمت التنقيط .

ونسب بعض أهل الأخبار الإعجام الى (أبي الأسود الدؤلي) ، كما نسبوا اليه النقط.وهو وَهَم وقعوا فيه من عدم ادراكهم للعمل الذي قام به (أبو الأسود) فظنوا انه استعمل النقط في الحالين: في النقط الذي هو الشكل،وفي النقط الذي هو الإعجام . والذي عليه الجمهور ان الإعجام كان من عمل (نصر بن عاصم) . فلما كثر الخطأ في قراءة القرآن بسبب عدم تمييزهم بين الحروف المتشابهة، وتفشي وباء الجهل بعدم التمييز في القراءة بين الحروف المتشاكلة (فزع الحجـاج الى كتابه،وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها ، بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف ، فغبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان التصحيف مع استعمال النقط أيضاً يقـع ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام[4] .

---

١ معاني القرآن ، للفراء ، (١/١٧٢ وما بعدها) .

٢ Grohmann, From the World of Islamic Papyri, PL. II, A, pp. 82, 113-114.

٣ G. C. Miles, Early Islamic Inscriptions Near Taif in the Hijaz, In JNES, 7, 1946.

٤ ابن خلكان (١/١٢٥) ، تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٦١) اللسان العربي ، ١٩٦٩م (ص ٥٢) .

وذكر ان (نصر بن عاصم) و (يحيى بن يعمر) ، وكانا ممن أخذا العلم عن أبي الأسود الدؤلي[1] نقطا الإعجام بنفس المداد الذي كان يكتب به الكلام ، حتى لا يختلط بنقط استاذهما أبي الأسود ، التي كانت بمداد يخالف المداد الذي كتب به الكلام . « وقد انتشرت تلك الطريقة وأضاف اليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى ، وزاد أهل المدينة التشديد فجعلوها قوسين يجعلان فوق المشدد المفتوح ، وتحت المكسور ، وعن يسار المضموم ، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس ، والكسرة تحت حدبته والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وأبقوه على أصله مع الفتحة . وزاد أهل البصرة السكون فجعلوه جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه »[2] .

والمشكلة الثانية في العربية ، هي مشكلة الحركات ، أي كيفية النطق بحروف الكلمة وبأواخر الكلم ليظهر المعنى حسب موقع الكلم من الاعراب . والعربية من اللغات العالمية التي احتفظت بخاصية الاعراب بينما تركتها لغات أخرى كانت لغات معربة في الأصل . لأن اهمال الحركات فيها يؤدي الى وقوع أخطـــاء كبيرة في فهم معنى الكلام ، لذلك وجب التغلب على هذه المشكلة بوضع علامات تعبر عن الحركات .

وسبب وجود هذه المشكلة في العربية ، هو أن أقلام العربية القديمة هي مثل الأقلام السامية الأخرى مؤلفة من حروف صامتة فقط ، ولا توجد فيهـا حروف تمثل الحركات ، تكتب في الكلمة . كما هو الحال في اليونانية وفي اللاتينية وفي الأبجديات الغربية الأخرى المشتقة منها ، فيقرأ الإنسان الكلمة قراءة صحيحة بغير خطأ لوجـود حروف الحركات مع الحروف الصامتة ، ويكتب كتابة صحيحة ، لأنه حين يكتب الكلمة ويلفظها يكتبها بحروف صامتة وبحروف الحركات. ويذكر أهل الأخبار أن العرب كانوا يفهمون معنى الكتابة بحدة ذكائهم وبطبعهم وسليقتهم فلم يخطئوا في فهم المعنى ، فلم يجدوا حاجة الى الشكل ، فلما جاء الإسلام،ودخل الأعاجم بكثرة فيه واختلطوا بالعرب واختلط العرب بهم، فشا اللحن في الكلام ،

---

١ الفهرست (ص ٦٨) ، (تسمية من أخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي) ، « ويقال : أول من نقط المصاحف ووضع العربية أبو الاسود الديلي ، من تلقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه » ، حكمة الاشراق (٨١) .

٢ اللسان العربي ، ١٩٦٩ م (ص ٥٢) .

وظهرت الحاجة الى تقويم الألسنة فوضع أبو الأسود الدؤلي مبادىء النحو والشكل. أي علامات الحركات. وسلك الناس طريقته ووسع من جاء بعده جادة هذا العلم، حتى صار من أهم العلوم عند العرب.

وعلينا أن نفرّق بين التنقيط أي الإعجام عند العرب وبين التنقيط عند غيرهم من الشعوب السامية. فالتنقيط عند العرب هو لتوضيح الحرف. بمعنى تعيينه وتثبيته لتمييزه عن الحرف الآخر المشابه له. أما في اللغات السامية الأخرى، فقد استعمل التنقيط فيها للتعبير عن الحركات. فالحركات في بعض اللغات السامية يعبر عنها بنقاط توضع فوق الحرف أو تحته. كما استعملت الخطوط المستقيمة وما يشبه الضمة للتعبير عن الحركات عند بعض لغات أخرى. ولم يستعمل الاعجام أي تنقيط الحرف لتمييزه عن حرف آخر مشابه له إلا في القليل، وذلك بسبب أن الحروف عندها غير متشابهة كثيراً، ولذلك فلا يلتبس أمر قراءتها على أحد، فلم تظهر الحاجة فيها الى إزالة اللبس بالتنقيط. ومن هنا اختلف مبدأ التنقيط في العربية عن مبدأ التنقيط في اللغات السامية الأخرى.

والتنقيط في كلتا الحالتين اي في حالة استخدامه للتعبير عن الحركات، اي الشكل، او في حالة استعماله للإعجام، أي لتمييز الحروف المتشابهة، هو عمل متأخر عن الكتابة عند العرب وعند غيرهم. وسبب ذلك ان الكتابة صنعة اختص بها رجال الدين والعلماء والمثقفون ثقافة عالية، وهم طبقة خاصة كانت فوق مستوى الجماهير، وكان من مصلحتهم حصرها بأنفسهم وبأولادهم وجعلها صنعة خاصة بهم جهد الامكان. وعدم السماح لغيرهم من سواد الناس بتعلمها وممارستها. بأن جعلوا لها أدباً وقواعد وشروطاً يجب أن تتوفر فيمن يمارس هذا الفن. جمعوها في (أدب الكاتب) أو (أدب الكتاب). وكان في جملة قواعد هذا الأدب تصعيب الصنعة وتعقيدها حتى لا يطرقها إلا الذكي الأريب. واتخاذ أقلام خاصة، يكون لكل قلم قواعده وأصوله في رسم الحروف، وإهمال التنقيط أو الشكل، لأن من مستلزمات الكاتب أن يكون فطناً يستنبط المعنى بذكائه يربط الكلمات بعضها ببعض. وهو ما يعجز عنه القارىء الكاتب الاعتيادي. فتجريد الكتابة من النقط والشكل امتحان يميز الكاتب العالم عن غيره ممن تعلم كيف يقرأ ويكتب وكفى. حتى لقد وقر في ذهنهم ان من ينقط الكتابة ويشكلها ويرسلها الى كاتب، فكأنما أراد بذلك إهانته ورميه بالجهل والغباء، إذ عنى بهذا التنقيط والتشكيل ان

المرسل اليه لا يفهم المعنى إلا إذا نقطت له الكلمات ، فكيف الحال اذن اذا كانت الرسالة ممن هو دون من أرسلت اليه في المنزلة والمكانة ، ومن رجل من طبقة سوية الى رجل أعلى طبقة منه . فكان من أدب الكتاب عندهم الترفع عن مستوى القراء الكاتبين ، بترك النقط والشكل . كانوا يقولون : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . نظر (عبدالله بن طاهر) خط كتاب وقع اليه ، فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه أي نقطه »[1] .

غير ان الحاجات دفعت بالناس ولا سيما بذوي الأعمال منهم الى التماس أيسر الطرق وأبسطها في تدوين أمورهم . فاختزلوا الخطوط وبسطوها ودفعوا التعسير بالتيسير . وكان من التيسير ، وضع علامات للحركات ونقط للإعجام . أما اليونان فصاغوا من الحركات حروفاً كتبوها جنباً الى جنب مع الحروف الصامتة ، فحلّوا بذلك أهم مشكلة من مشكلات الكتابة . وأما الشعوب السامية ، فاتخذت التنقيط والعلامات فوق أو تحت الحرف أو في داخله لتميز بذلك حرفاً متشابهاً عن الحرف الذي يشابهه ، او لتعيين حركته . وأما الحبشية ، التي أخذت قلمها من المسند ، فاتبعت طريقة اليونان وتغلبت بذلك على المشكلتين وظهرت بذلك أقلام شعبية تنقط وتشكل ، استعملها السواد ، أما أرباب العلم من الكتاب ، فقد أبوا كتابة الكتب المقدسة وكتب العلم والتراث بخطوط السواد ، وأبوا إلا الكتابة بالقلم القديم ، والمحافظة على الضبط القديم ، لأنه في نظرهم جزء من النصوص فلا يمكن اجراء أي تغيير عليها . أما ما سوى ذلك فدوّن بالأقلام الشعبية التي أوجدتها ضرورات التيسير وتطور الزمن .

وأغلب روايات اهل الأخبار أن الخط العربي الأول لم يكن مشكلاً . وأن الشكل إنما وجد في الإسلام . وكان موجده (أبو الأسود الدؤلي) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، فاستعمل النقط بدل الحركات ، ثم أبدل (الخليل بن أحمد الفراهيدي) ، النقط برموز أخرى هي الفتحة والكسرة والضمة . ويرى بعض الباحثين أن نقط (ابو الأسود الدؤلي) ، هو على نحو النقط في الخط النسطوري السرياني ، ويحتملون تعلمه قاعدة التنقيط منهم[2] . وكان عندهم نقط كبيرة

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٦٢/٣) .
٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (حـ ١ ص ١٩) .

توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقع هو فيها: اسم هي أم فعل أم حرف . مثل قولهم : كتب ، فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب ، او فعلاً ماضياً معلوماً أو مجهولاً ، وكان عندهم ايضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن . وهي عبـــارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيـــد ذلك انه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ؛ وإذا ضممت فمي فانقط نقطة بـــين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغالب ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمر وبجوار القاهرة ، وهو من أقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون ، فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحته كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الأسود[1] .

ويرى بعض المستشرقين أن ضبط الكتابة العربية قد بدىء به قبل الإسلام[2] . وذلك لأن عرب العراق وعرب بلاد الشأم كانوا يكتبون بالسريانية ، وقد عرفت السريانية مشكلة الشكل وعالجتها ، فلا بد وأن يكون العرب الذين أخذوا قلمهم من السريانية او النبطية المتأخرة قد وقفوا على المشكلتين فعالجوهما على نحو ما .

وأود ان أبين بهذه المناسبة ان تنقيط (ابو الأسود) للحروف لم يكن إعجاماً، بل كان شكلاً ، اي ضبط حركة الحرف من حيث الضم او الفتح او الكسر او السكون حسب تكوين الحروف للكلمة . فهذا كان تنقيط (ابو الأسود الدؤلي)[3] أما شكل الوقت الحـــاضر ، فهو من اختراع (الخليل بن احمد الفراهيدي) . ولذلك يجب علينا التفريق بين تنقيط (ابو الأسود) ، وبين الاعجام الذي هو

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٦٠ وما بعدها) ، الفهرست (ص ٦٦) ، الدراسات الادبية السنة الثانية ، العدد الاول ، ١٩٦٠ م ، (ص ٨٣) .

٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م (حـ ١ ص ٢٠) .

٣ الفهرست (٦٦) ، (في أخبار النحويين واللغويين وأسماء كتبهم) ، (الفن الاول) .

تنقيط الحروف المتشابهة لإزالة اللبس بينها ، ثم التفريق بين شكل (ابو الأسود) وبين شكـــل (الخليل بن أحمد) واضع الشكل المتبع الآن ، لموت طريقـــة (ابو الأسود) ، في الشكل ، وتخصيص النقط بالاعجام ، ومن هنـــا وقع البعض في لبس من أمر النقط والاعجام ، فلم يفرقوا بينها . والصحيح هو مـــا قلته من ان النقط هو الشكل في الأصل ، فبهذا المعنى كان في أيام (الدؤلي) الى أن قامت الحركات التي هي الضمة والفتحة والكسرة مقام نقط الدؤلي، فوجد الناس في الحركات سهولة مكنتهم من التفريق بين إعجـــام الحروف وتشكيلها ، فخصصوا النقط بالإعجام والحركات بالشكل ، وبذلك زال اللبس الذي أدى الى وقوع أخطاء في فهم المراد من الإعجام ومن الشكل الذي هو الحركات .

والتنقيط من الأمور التي كان يراعيها العبرانيون منذ القديم في قراءة التوراة . فقد كانوا ينقطون بعض حروف الكلمات لتنبيه القارىء الى أهمية الكلمة ولمكانتها المقدسة،وعرف هذا التنقيط بـ Puncta extraordinaria عند رجال الدين.فقد نقطوا لفظة (عانقه) في الآية : « فبادر عيسو وتلقاه وعانقه وألقى بنفسه على عنقه وقبّله وبكيا »[1] ، ونقطوا لفظة (فامحي) ، من الآيـــة : « والآن إن غفرت خطيئتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت »[2] ، ولفظة (يمحوها) في الآية : « فيكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ويمحوها بالماء المرّ »[3] ، وقد فعل ذلك في الأناجيل أيضاً ، كما في لفظة (محا) الواردة في الآية : « ومحا الصك الذي كان علينا بموجب الأقضية الذي كان لهلاكنا وأخذه من الوسط وسمّره في الصليب»[4]. ثم زاد علماء التوراة وكتّابها زيادات أخرى في أصول التنقيـــط ووضع العلامات الخاصة على الحروف التي هي الإعجام ، وصيّروها علماً خاصاً بالتوراة أشير اليه في (السوفيريم) وفي التلمود[5] .

ونجد في (انجيل متى) اشارة الى التنقيط في الحروف ، جاء : « الحق أقول لكم : انـه إلى أن تزول السماء والأرض ، لا تزول ياء أو نقطـــة واحدة من

---

١ سفر التكوين ، الاصحاح (٣٣) ، الاية ٤ .
٢ الخروج ، الاصحاح ٣٢ ، الاية ٣٢ .
٣ سفر العدد ، الاصحاح الخامس ، الاية ٢٣ .
٤ رسالة القديس بولس الى أهل كولتى ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٤ .
٥ Hastings, p. 979.

الناموس حتى يتم الكل »[1] . وفي هذه الآية إشارة الى تدقيقاتهم في الكتابة، وتمييزهم بين حرف وآخر بالنقط[2] .

وكان كتّاب الأناجيل والكتب المقدسة ، اذا أضافوا كلاماً من عندهم على النص ، أو فسروا لفظة من ألفاظه ، كتبوه بخط ثخين عريض ، ليتبين للقارى ان ما هو مدون ليس من صلب الكتاب المقدس ، وانمـــا هو إضافة لتفسير أو لشرح[3] .

وأود أن أبين ، ان موضوع النقط الذي هو الإعجام وموضوع الشكـل من الموضوعات التي لم تدرس دراسة كافية علمية حتى الآن . وهما مما لا يمكن البت فيها الآن ، إلا إذا عثر على كتابات جاهلية عربية وعلى كتابات تعود الى أيام الرسول وما بعده ، وإلا بعد نشر ما ألفه العلماء عن النقط والشكل . فقد ألف العلماء في ذلك كتباً ، أشار اليها (ابن النديم) ، فقال : « الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن : كتاب الخليل في النقط ، كتاب محمد بن عيسى في النقط ، كتاب اليزيدي في النقط ، كتاب ابن الأنباري في النقط والشكل ، كتاب أبـي حاتم السجستاني في النقط والشكـل بجداول ودارات ، كتاب الدينوري في النقط والشكل »[4] .

وهناك مؤلفات أخرى دونت في (لامات القرآن)[5] ، وفي هجاء المصاحف[6] ، وفي اختلاف المصاحف وأمثال ذلك[7] ، تفيدنا كلهـــا في تكوين رأي عن تطور الخط العربـي في أوليات أيامه ولا سيما في صدر الاسلام .

وقد سار الخط العربـي الشمالي على نسق أغلبية الخطوط السامية مثل الخط النبطي والإرمي والعبراني فاتجه من اليمين الى اليسار . ونظـــراً لوجود حروف منفصلة

---

١ الاصحاح الخامس ، الاية ١٨ .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٣١) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٥٢) .
٤ الفهرست (ص ٥٩) ، (كتاب النقط والشكل) ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، الفهرست (ص ٧١) .
٥ الفهرست (٦٠) .
٦ الفهرست (٦١) .
٧ الفهرست (٦٠) .

وحروف متصلة فيه ، دونت كتابة الكلمات فيه بالجمع بين النوعين من الحروف ، وبذلك سهُل أمر الكتابة بهذا القلم ، وصار على غرار القلم النبطي في السرعة . وللتمييز بين الكلمات ، لم يستعمل الخطوط العمودية النازلة بين الكلمات للفصل بينها ، على نحو ما كان في المسند ، بل سار على طريقة النبط في وضع فراغ صغير مناسب بين كل كلمة وأخرى ، دلالة على انفصالها بعضها عن بعض .

أما المسند ، فقد اشتهر عند علماء العربية بأنه خط حمير ، ولذلك قال له بعضهم (الخط الحميري) ، و (القلم الحميري)[1] ، كما قال له المستشرقون فيما بعد . وهي تسمية مغلوطة على كل حال ، لأن الحميريين لم يكونوا أول من أوجد هذا الخط ، لقد سبقهم في استخدامه السبئيون والمعينيون وأقوام عربية اخرى ، وقد عرفه بعض علماء العربية بقوله : « المسند : خط لحمير مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه ايام ملكهم فيما بينهم ، قال ابو حاتم : هو في أيديهم الى اليوم باليمن »[2] . وقد ذكر (ابن خلدون) أن حمير كانت تمنع من يريد ان يتعلم المسند إلا بإذنها[3] .

والأبحاث التي قام بها الباحثون عن الخط العربي قبل الإسلام ، لا تزال في مراحلها الأولى ، ولا يمكن في نظري نضج هذه البحوث والوصول الى نتائج علمية مرضية إلا إذا قام المتخصصون بالتنقيب تنقيباً علمياً في جزيرة العرب كلها ، وهذا ما يستغرق بالطبع وقتاً طويلاً . ولا يستبعد أن يتوصل المنقبون الى معرفة أبجديات واقلام قد تكون اقدم عهداً من هذه الأقلام التي تحدثت عنها ، وقد يجدون أقلاماً اخرى جديدة تسمى بأسماء جديدة ، قد تغير من هذه النظريات العلمية التي تلوكها ألسُنُ العلماء في هذا اليوم . فقد عثر على نصوص يظهر أنها بقلم ثمودي في موضع (ينبع النخل) الذي يبعد مسافة أربعين كيلومتراً عن (ينبع)[4] . كما وجدت كتابات بخطوط جاهلية وبخط عربي من صدر الإسلام في (جبل سلع) عند المدينة ، وفي (وادي العقيق) الذي لا يبعد كثيراً عن المدينة[5] . وكذلك في (وادي رانونا) الواقع جنوب المدينة على مسافة ثمانية

---

١ اللسان (٣/٢٢٤) ، (صادر) ، (حمر) .
٢ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٤ Rock Inscriptions in the Hijaz, A Report by Osman R. Rostem, p. 2.
٥ Rostem p. 4.

كيلومترات ، حيث وجدت نقوش صور حيوانات كذلك[1] . وفي (الصويدرة) ، و (بستان شهار) ، وهو موضع يقع على مسافة كيلومترين جنوب الطائف ، حيث يذكر من رآه انه وجد فيه كتابات تظهر وكأنها كتابات يونانية[2]. ووجدت كتابات بعضها بدائية او من شكل جديد في مواضع أخرى من الحجاز،قد تكون أقلاماً جديدة ، كتبت بلهجات لا نعرف عنها اليوم شيئاً .

لقد كان من الشائع بين الباحثين ان المنطقة الواقعة فيما بين المدينة والطائف منطقة فقيرة بالكتابات ، ولكن عثور بعض الباحثين على كتابات ثمودية وعلى كتابات أخرى وفي ضمنها كتابات قديمة تمثل أقدم أنواع الخط الذي دوّن به القرآن الكريم ، قد مزّق حجب ذلك الشائع ، وسوف يقف الباحثون ولا شك على كتابات أخرى جديدة في مواضع أخرى من الحجاز ولا سيما في المواضع الواقعة على طرق القوافل القديمة . وعندئذ سيزيد علمهم عن الأقلام العربية الجاهلية وعن علم الناس بلهجات العرب قبل الاسلام، ولا سيما بلهجات أهل الحجاز لما في ذلك من فائدة في الوقوف على اللغة التي نزل بها الوحي .

هذا — وأعود فأقول — إن من الخطأ مجاراة أهل الأخبار رأيهم في أن الكتابة العربية كانت قد نقلت أول ما نقلت الى مكة ، ثم انتشرت منها الى (يثرب) والى الأماكن الأخرى . إذ يروي أهل الأخبار أنفسهم أنه كان بيثرب قبل الإسلام رجال كانوا يقرأون ويكتبون بهذا القلم ، ومنهم من كتب للرسول . وأما ما ذكروه من أن الرسول طلب من أسرى (بدر) ممن لم يكن يستطيع فداء نفسه ، تعليم عشرة أطفال من أهل يثرب القراءة والكتابة في مقابل فكّ أسرهم، فليس فيه دليل على عدم وجود قارئين كاتبين بها ، وإنما فعل النبي ذلك لتكثير الكتابة فيها ، ولنشر التعليم بين المسلمين .

وقد أخطأ (ريجس بلاشير) في رأيه القائل : « لدينا مصادر أكثر قدماً ، تدفعنا الى الاعتقاد بأنها كانت كثيرة الاستعمال في الطائف بعكس انتشارها في المدينة الذي لقي صعوبات » ، ثم قال في الملحوظة (٥) : « من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الطريقة الكتابية العربية » ، واستدل على الحالتين باستعانة

---

١ المصدر السابق .
٢ المصدر السابق (ص ١١) .

الرسول بأسرى بدر لتعليم المسلمين القراءة والكتابة ، لأن المصادر المحلية كانت غير كافية[1] . ولا أعرف شيئاً عن المصادر القديمة التي ذكر أنها تشير الى كثرة الكتابة بالطائف ، عكس المدينة ، لأنه لم يشر اليها ، وإنما قال قولاً عاماً ، لم يؤيده بذكر اسم المورد الذي استقرى رأيه منه . ولعله قصد ما ورد في حديث تدوين القرآن من اجعلوا المملي من قريش ، أو من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وهو حديث لا صلة له بقلة أو بكثرة انتشار الكتابة في مكان ، ثم إنه يتناول مكة كذلك ، كما يتناول المدينة ، ونحن لو أحصينا عدد من كان يكتب من أهل يثرب من الصحافة لما وجدناه يقل عن عدد كتّاب الطائف قبل الإسلام ، بل هو فوقه بكثير ، كما رأينا فيما سلف . أما قوله : من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الكتابة في يثرب ، فيخالفه ما ورد في الأخبار من أن احد يهود (بني ماسكة) كان يعلم أهل يثرب الكتابة ، وتعلم أهل يثرب الكتابة بالعربية ، لا يضر اليهود شيئاً ، حتى يقاوموا تعلمها ، بل ربما كان العكس هو الصحيح ، لأن في تعلمهم الكتابة والقراءة يجعلهم أقرب الى التفكير والتأمل والاستقرار والميل الى الهدوء والوقوف على الكتب من الجهلة الأميين ، الذين تتحكم العواطف والعنجهيات في عقولهم ، فتبعدهم عن حياة الهدوء والمسالمة .

ولم يصل الى علمي ان أحداً من الباحثين قد تمكن حتى الآن من الحصول على كتابات في العربية الجنوبية مدونة بهذا القلم الذي نكتب به ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم استعمال أهل تلك البلاد له ، فقد يجوز أن يكونوا قد استعملوه في أمورهم التجارية وفي مراسلاتهم وأعمالهم الأخرى ، استعمال أهل مكة ويثرب له ، إلا انه لم تبق منه بقية بسبب كونه قد كتب على الأدم والمواد الأخرى السريعة التلف ، فلم تبق منه بقية ، شأن كتابات أهل مكة ويثرب المكتوبة على هذه المواد . إذ لا يعقل عدم وصول هذا القلم الى نجران والى صنعاء والى الأماكن التي وجدت النصرانية سبيلاً لها بينها ، وقد كان النصارى يكتبون به ، وهم من أهم العناصر التي أدخلته الى جزيرة العرب .

إن القلم الذي دوّن به الوحي ، والذي صار بفضله القلم الرسمي للعرب ولعدد كبير من الشعوب الاسلامية ، حمل في نفسه مثل أكثر الخطوط السامية وغيرها ،

---

١ تأريخ الادب العربي (٧٤) .

نقاط ضعف ، عولجت بعضها وتغلب عليها ، كما في موضوع تشابه الحروف مثل الباء والتاء والثاء ، حيث تغلب عليها بالتنقيط ، وكما في كيفية التلفظ بالحركات ، حيث عولج بوضع علامات لها فوق او تحت الحروف ، ومثل حرف (المد) والتنوين ، وأمثال ذلك ، مما جعل قارىء الكتاب يلاقي صعوبة كبيرة في قراءة الخط وفي فهم المراد منه ، تجلت في المحاولات التي ظهرت في صدر الاسلام لإصلاح هذا الخلل ، الذي ورد اليهم من نقلهم الخط نقلاً ،دون اجراء اصلاح عليه ، ومع ذلك فلا تزال هناك مواطن ضعف فيه يجب التغلب عليها ، نجدها مدونة في البحوث التي نقرأها بين الحين والحين في موضوع إصلاح الخط العربي ، لا مجال لسردها ولسرد حججها وأدلتها في هذا المكان .

أصل الخط :

ولقد اهتم المسلمون في موضوع أصل الخط عند البشر وفي منشئه وكيفية ظهوره . وذهبوا الى ان أول من وضع الخطوط آدم ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أظل الأرض الغرق أصاب كل قوم كتابهم . وقيل (أخنوخ) ، وهو (ادريس)[1]. وقالوا : « كان ادريس النبي عليه السلام أول من خطّ بالقلم وأول من خاط الثياب ولبسها ، وكان من قبله يلبسون الجلود »[2] . وعرف عندهم بـ (هرمس الأول) ، « وهو المثلث النعم ، فإنه كان قبل الطوفان . ومعنى هرمس لقب، كما يقال قيصر وكسرى . وتسميه الفرس في سيرها اللهجد ، وتفسيره ذو عدل. وهو الذي تذكر الحرانية نبوته . وتذكر الفرس أن جده كيومرث ، وهو آدم . ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ . وهو بالعربية ادريس »[3] . وقالوا : « إن ادريس أول من درس الكتب ، ونظر في العلوم ، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو

---

١ صبح الاعشى (٦/٣ وما بعدها) ، حكمة الاشراق ، للزبيدي (٦٤) ، (نوادر المخطوطات) .

٢ عيون الاخبار (للدينوري ٤٣/١) ، (الكتاب والكتابة) .

٣ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٠ وما بعدها) ، (ابنجهبذ) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٥ وما بعدها) .

أول من خاط الثياب ولبسها »[1] . وذكروا أنه عرف بـ (هرمس الهرامسة) ، تمييزاً له عن (هرمس الثاني) ، وهو (هرمس البابلي) ، وعـن (هرمس الثالث)،وهو (هرمس المصري)[2] . وانه هو باليونانية أرميس وعرب بهرمس. ومعنى أرميس عطارد وانه بالعبرانية (خنوخ) وعُرب (أخنوخ) . وسمـاه الله في كتابه العربـي المبين ادريس . وان معلمه اسمه (اغثاذيمون) المصري . الى غير ذلك من قصص[3] نجده في كتب أهل الأخبار .

وهو في زعم أهل الأخبار (أخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش ابن شيت بن آدم) . ومولده بمصر في مدينة (منف) . ووصفوه وصفاً كأنهم كانوا معه وقد شاهدوه وجالسوه ، فقالوا : « كان عليه السلام رجلاً آدم اللون تام القامة ، أجلح ، حسن الوجه ، كث اللحية ، مليح التخاطيط ، تام الباع، عريض المنكبين ، ضخم العظام ، قليل اللحم ، براق العين أكحل ، متأنياً في كلامه ، كثير الصمت ، ساكن الأعضاء ، اذا مشى أكثر نظره الى الأرض ، كثير الفكرة ، به حدة وعبسة ، يحرك اذا تكلم سبابته »[4]. وكان كثير الأسفار : زار الهند ، وجاء الى فارس وبابل . وعرف بـ (ارمس) عند اليونان . وهو « اسم عطارد . ويسمى عند اليونان أطرسمين »[5] . « استخرج سائر الصنائـع والفلسفة والطب »[6] . وهو الذي علم (اسقلبيوس) الطب .. وهو أول من تكلم في شيء من الطب على طريق التجربة وامـام الطب ، وأبو أكثر الفلاسفة[7] . « وأول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية ، وان جده كيومرث ، وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى الهياكل ومجّد الله فيها، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه . وانه ألّف لأهل زمانه كتباً كثيرة، وأشعاراً

---

١ ابن أبى أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٢) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكمـاء (ص ٥ وما بعدها) .

٢ ابن جلجل ، طبقاء الاطباء والحكماء (ص ٨ وما بعدها) ، ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (ص ٢ وما بعدها) .

٣ ابن القفطي ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٢) .

٤ ابن أبي أصيبعة ، عيون (٣١) .

٥ ابن أبي أصيبعة ، عيون (٣١) .

٦ المصدر نفسه (ص ١٢) .

٧ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٢٩ وما بعدها) .

موزونة وقواف معلومة بلغة أهل زمانه في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية . وهو أول من أنذر بالطوفان ، ورأى ان آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار ، وكان مسكنه صعيد مصر ، تخير ذلك فبنى هناك الأهرام ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي ، وهو الجبل المعروف بالبرابر بأخميم وصوّر فيها جميع الصناعات وصناعها نقشاً ، وصوّر جميع آلات الصناع ، وأشار الى صفات العلوم لمن بعده برسوم حرصاً منه على تخليد العلوم لمن بعده ، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم »[1] .

ونسبوا له النبوة والقول بالتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض على الزهد والعدل والصيام أياماً معروفة في كل شهر والجهاد على الأعداء وايتاء الزكاة معونة للضعفاء ، وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة والحمار والكلب . وحرّم المسكر من كل شيء من المشروبات ، وشدد فيه أعظم تشديد ، وجعل لهم أعياداً كثيرة ، وقربانات . ورتّب الناس ثلاث طبقات : كهنة وملوكاً ورعية . وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك ، لأن الكاهن أقرب الى الله من الملك والرعية[2] .

و (هرمس) من (أرمس) Ermis ، اسم إلـه من آلهة اليونان . ويقابل الإلـه (تحوت) Thot عند قدماء المصريين . وينسب المصريون اليه اختراع كل علم . ويقابل Mercurius عند الرومان . وهو (عطارد) عند العرب .وقد عرف عند المسلمين بـ (هرمس المثلث النعم) وبـ (المثلث النعم) ، وقد أخذ ذلك عن اليونانية ، إذ لقب فيها بـ (طريسميجيسطيس) Hermes Trismegistes ومعناه ثلاثي التعليم . وقد عرّبوه فجعلوه (اطرسمين)[3] . وقد وقف المسلمون على قصص قديم شاع بين البابليين والمصريين والعبرانيين واليونان والرومان والفرس عن أصل المعرفة وكيف ظهرت بين البشر ، فمزجوا بينها وجسّموها في قصص ادريس . وفي جملة ذلك اختراع الكتابة ، فنسبوها اليه .

ولأهل الأخبار آراء في كيفية ظهور الكتابة عند كل أمة من الأمم . أخذوها من أهل الكتاب أيضاً ومن القصص والأساطير . فذكروا مثلاً ان الله أرسل ملكاً

---

١ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٢) .
٢ ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (٥ وما بعدها) .
٣ ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٦ وما بعدها) ، Shorter Ency. p. 158.

اسمه (سيمورس) ، علم آدم الكتابة السريانيـــة ، على ما في أيدي النصارى . وتفرعت منها ثلاثة أقلام ، وهي : المفتوح ويسمى اسطرنجالاً ، وهو أجلّهـــا وأحسنها ، ويقـــال له الخط الثقيل ونظيره قلم المصاحف . والتحرير المخفف ، ويسمى اسكوليثا ، ويقال له الشكل المدور ، ونظيره قلم الوراقين . والسرطا وبه يكتبون الترسل ، ونظيره في العربية الرقاع[1] . وذكروا ان أول من كتب بالفارسية (جم الشيد بن اونجهان) (جمشيد) (جم شيد) ، « وكان ينـــزل أسان من طساسيج تستر ، فزعمت الفرس انه لما ملك الأرض ودانت له الجن والانس وسخر له ابليس ، أمره ان يخرج مـــا في الضمير الى العيان فعلّمه الكتابة[2] . وزعموا ان أول من كتب بالعبرانية عابر بن شالخ ، وضع ذلك بين قومه فكتبوا به[3] . وزعموا ان اليونان لم يكونوا يعرفون الخط حتى ورد رجلان من مصر ، يسمى أحدهما قيمس والآخر أغنور ومعهما ستة عشر حرفاً ، فكتب بها اليونانيون ، ثم استنبط أحدهما أربعة أحرف ، فكتب بها . ثم استنبط آخر يسمى سمونيـــدس أربعة أخر ، فصارت أربعاً وعشرين[4] .

ترى مما تقدم أن أهل الأخبار أخذوا أخبارهم المتقدمة عن نشوء الخط ، من اهل الكتاب ومن الأساطير المترسبة من القصص الساذج القديم الذي كان شائعـــاً عند الشعوب القديمة ، ثم صاغوه صياغة اسلامية ، دون نقد ولا تمحيص ، ومراجعة لاستخراج عناصر السذاجة والخرافات منها ، وسبب ذلك أن ملكة النقـــد كانت هزيلة عندهم ، وقد تقبلت كل ما سمعته من (أهل العلم الأول) دون نقد ولا تمحيص ، تقبلت حتى الخرافات والأباطيل المخالفة لأبسط قواعد المنطق والعقل .

قلم النبط :

وقلم النبط هو على عكس الأقلام العربية الأخرى التي عرفناها ، وهي : المسند ، والقلم الثمودي ، والصفوي ، واللحياني ، قلم يرجع أصله الى القـلم الذي ينتمي اليه قلم بني إرم وقلم تدمر ، والى المجموعة السامية الشمالية للخطوط . وقد تطور

---

١ الفهرست (٢٤) .
٢ الفهرست (ص ٢٥) .
٣ الفهرست (ص ٢٨) .
٤ الفهرست (ص ٢٩) .

القلم النبطي ، كما تطور غيره من الخطوط ، فصار له قلم قديم وقسلم متأخر ، امتاز بميله الى ربط حروفه بعضها ببعض ، حتى اكتسب شكلاً يمكن قراء القلم العربي الشمالي من التعرف عليه بسهولة ، وبعد استعراض قليل له . وقـد عمل مهندسو هذا الخط في تمديد بعض الحروف نحو اليسار ، حتى ابتعدت عن سمياتها في الأبجدية الإرمية بعض البعد .

إن هذا التطور الذي مرّ به الخط النبطي،يظهر لنا أن النبط لم يكونوا يقنعون بالأخذ والاقتباس ، وإنما كانوا يكيفون ما يتلقونه من غـيرهم ويطورونه حتى يكتسب شخصية خاصة مستقلة .

هذا ولا بد لي من الإشارة الى أن الألف في اللهجـة النبطية قد تقوم مقام الهمزة في أبجديتنا في بعض الأحيان،وقد تقوم مقام المدة (آ) A عند وجودها في وسط اللفظة وفي نهايتها . وقد يحل محلها الحرفان الـ (و) والـ (ي) كما في (روفو) في موضع (رأفو) ، و (رُأف) و (اروس) في موضع (أرأس) . ولما كانت الألف من الحروف الساكنة في الأبجديات السامية في الغالب ، فاستعمالها في موضع الألف الممدودة وإحلال بعض حروف العلة في موضعها في النبطية وفي بعض الأبجديات السامية ، يدل على أن الأبجديات السامية المتأخرة نظرت اليها على أنها من حروف العلة المعبرة عن بعض الأصوات[1] .

وحرف الـ (ج) هو (كيمل) في الأبجديات السامية ، وهو قريب في النطق من الكاف (ك) (كاف) الفارسية . غير أن الكتابات النبطية المتأخرة استعملت هذا الحرف في مواضع كثيرة على نحو نطقنا بالجيم في عربيتنا[2] .

---

١ Nabataen Inscriptions, Leiden, 1914 ,p. 37 ff, in Publi. of the Princ. Univ. Archae. Expedi. to Syria, Section A ,Semitic Inscriptions, p. XXV.

٢ المصدر نفسه .